

نوابغ الفكر العربي

٤٠

حسن العطار

بقلم

محمد عبد الغني حسن



دار المعارف



حَسَنُ الْعَوَّادِ

نوابغ الفكر العربي

٤٠

حسن العطار

بقلم
محمد عبد الغني حسن

« إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ،
ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها »
حسن العطار

الطبعة الثانية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الفصل الأول

عصر حسن العطار

١ - الحياة السياسية

ولد الشيخ حسن العطار في أول الثلث الأخير من القرن الثامن عشر سنة ١٧٦٦ م ، أى قبل الحملة الفرنسية على مصر باثنين وثلاثين عاماً . فهو يعطينا بمولده هذا صورة لمصر السياسية في القرن الذى كان نهاية لحكم الولاة العثمانيين في مصر .

والحق أن مصر في القرن الثامن عشر كانت تختم القرون الثلاثة من الحكم العثمانى الذى ساقه القدر إليها على يد السلطان سليم العمانى الذى فتح مصر سنة ٩٢٢ هـ - سنة ١٥١٧ م . وهى قرون شهدت البلاد فيها من الظلام والجهل والضعف والتأخر في كل الميادين ما لا يمكن أن يصار إلى أسوأ منه . وكانت بداية القرون الثلاثة كنهيتها سوء حال . وضعف مال . وما ظنكم بفتح تركى غاشم . دهم البلاد بخيله ورجله : ثم رأى - بعد أن خرج منها مخلفاً نائبه عليها - أن يسلبها خير ما فيها . فقد روى ابن إياس مؤرخ الحملة العثمانية على مصر أن ابن عثمان - يعنى السلطان سليما - خرج من مصر وصحبته ألف جمل محملة ما بين ذهب وفضة ، هذا عدا ما غنمه من التحف والسلاح والصينى والنحاس المكثف والخيول والبغال والجمال وغيرها . ولم يكتف بذلك بل نقل حتى الرخام الفاخر من مساجدها ودورها . وما أكثر تهكم مؤرخنا ابن إياس وهو يقول عن هذه النهوبات إنها مما لا فرح به آباء السلطان سليم ولا أجداده من قبله أبداً ! ولم تشعب هذه النفائس المصرية منهم الفاتح الناهب . فنقل معه من مصر إذ استنبول طوائف كثيرة من آرباب الصناعات وأهل الفنون من البنائين والتجارين والحلادين والمرخين والمبلطين والخراطيين والمهندسين والحجارين والفعلة . . .

وكاد مؤرخنا البحائة المصرى وتلميذ المؤرخ السيوطى يذكر لنا فى حوادث سنة ٩٢٣ هـ من كتابه « بدائع الزهور » فى وقائع الدهور « أسماء هؤلاء الذين اقبلتهم السلطان سليم من وطنهم ليحيى بهم الفن والصناعة فى وطنه . . . »

وإذا كان الوالى العثمانى - الذى كان يعينه سلطان تركيا على مصر - هو أحد السلطات الثلاث التى كانت تشترك فى حكم البلاد وإدارتها ، وهى : الوالى نفسه ، ورؤساء الجند : والأمراء المماليك الذين كانوا يحفظون التوازن بين الوالى ورؤساء الجند : فإن هذا النظام الذى أدخله إلى مصر السلطان سليم أو السلطان سليمان القانونى قد تطور فى النصف الثانى من القرن السابع عشر بحكم طبيعة التنافس بين هذه السلطات الثلاث . وانتهى الأمر فى سنة ١٦٧٢ إلى أن استأثر المماليك البكوات وحدهم بحكم مصر ، ولم يكن للوالى التركى بجانبهم نفوذ ولا سلطان .

وبروى لنا الرحالة فانسليب Vansleb الذى زار مصر فى العقد الثامن من القرن السابع عشر أن عدد حكام مصر من البكوات المماليك فى عصره كان ستة عشر مملوكاً ، وإن كان هذا العدد قد نقص فى القرن الثامن عشر إلى بضعة من البكوات المماليك كما يذكر الرحالة سنونى .

وأياً ما كان عدد البكوات الذين استأثروا بحكم مصر وإدارة شئونها منذ القرن السابع عشر : فإن تصحيحاً يجب أن يذكر هنا بصدد هؤلاء المماليك الذين شاركوا فى حكم مصر أو حكموها مستقلين فى العهد العثمانى . فليس كل هؤلاء البكوات المماليك أحفاداً لرجال دولتى المماليك البحرية والبرجية الذين انتهى إليهم حكم مصر بعد الدولة الأيوبية : وليس هؤلاء البكوات المماليك امتداداً فى النسل والنزعية لمماليك الدولتين البحرية والبرجية . نعم إن كثرة منهم كانت فى أول الحكم العثمانى امتداداً وأسلاً لأولئك المماليك ، ولكنهم بعد ذلك وبمضى الزمن كانوا يحتلبون بوساطة البكوات الأمراء من بلاد الشركس والكرج والقوقاز عن طريق الشراء . ليزداد البكوات عصبية بهم . وكان هؤلاء المحتلبون يصيحون مع الزمن أمراء ينقلبون على سادتهم الذين اشتروهم ويتزعون الساطان من أيديهم ويحلون محلهم . . .

وحين نتمسح تاريخ الخبرتي المسمى « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » نرى أخباراً كثيرة من هذه الانقلابات والوثبات التي كان يشهدها هؤلاء الأمراء المماليك بعضهم على بعض حتى يستقيم فم الحكم وحدهم بلا منازعين . . . ومنذ انقرد البكوات المماليك بحكم مصر في العصر التركي دون الولى العثمانى ورؤساء الجند فإن نفوذ ذلك الولى لم يعد له قيام . وكان هم الولى وهو عديم السلطان فى القلعة أن يلس بين أمراء المماليك ويوقع الفتنة بينهم حتى يصفو له العيش ولو بعض حين . ومن يحضرنا فى هذا المقام الولى العثمانى سنيان باشا الشامى الشهير بابن العظم الذى جاء لولاية مصر قبل مولد حسن العطار ببضعة وعشرين عاماً . ويذكر مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتي أنه لما استقر فى ولاية مصر أراد إيقاع فتنة بين الأمراء ، واستعان فى ذلك بالأمير المملوك عمر بن على بك قطامش ، واتفق معه على التخلص بالقتل من أربعة من البكوات المماليك ، وهم عثمان بك ذو الفقار ، وإبراهيم بك قطامش ، وعبد الله بك القازدغلى ، وعلى بك كسخلدا الجلفى . وهم إذ ذاك أصحاب الرياسة والنفوذ بمصر : وكان ثمن هذه الخيانة من المملوك عمر بك قطامش أن يعينه الولى العثمانى أميراً للحج وأن يعطيه من بلادهم فائز عشرين كيساً) . . .

وبالطبع لم تطل ولاية هذا الولى الدساس الذى قذف به السلطان العثمانى من الشام إلى مصر . فقد عرف البكوات فتنة : واتفقوا شره ، واضطروه إلى مغادرة البلاد . على أن خلفه المسمى على باشا حكيم أوغلى قد احتاط لنفسه من أن يتهم بالفتنة منذ اللحظة التى حط فيها رحاله بمصر : فنجد حضر أول ديوان بميدان قراميدان . وكان يشهده الجلم الفقير من الناس : وقرى مرسوم الولاية بحضرة الجميع وقف الولى الحديد يعان فى صوت قوى مسموع : أنا لم آت إلى مصر لأجل إثارة فتن بين الأمراء . وإغراء ناس على ناس . وإنما أتيت لأعطى كل ذى حق حقه . وحضرة السلطان أعطانى المقامات . وأنا أنعمت بها عليكم ! فلا تتعوبنى فى حلاص المال والغلال !

والحق أن الدولة العثمانية فى ذلك الحين كانت مشغولة بضمها وتقهر

الأمور فيها عن أن توجه عنايتها إلى مصر أو إلى أى بلد آخر من البلدان التابعة لها . فقد كان عندها من المشاغل والمساائل ما يصرفها عن أن تتجه بإصلاح إلى هذه البلاد التي كانت بحاجة إلى إصلاح . وكانت الحروب والمنازعات التي قامت بينها وبين النمسا والروسيا في ذلك العهد أكبر باعث للمماليك في مصر على أن يحاولوا التخلص من سيادة تركيا : والاستقلال بمصر . وقد ظهر ذلك جلياً في الدور الذي قام به المملوك على بك الكبير : الذي كان كبيراً للبكوات المماليك في مصر . والذي وصل ببقوته ودهائه وقوة أشياعه إلى أن صار شيخاً للبلد سنة ١٧٦٣ م . فما كاد يرى الدولة العثمانية تداخل في حرب مع روسيا سنة ١٧٦٨ حتى جاهر بخلع يده من طاعة الدولة ، وامتنع عن دفع الخراج سنة ١٧٦٩ وأعلن استقلال مصر ، وعزل الوالي التركي المعين من قبل السلطان ، ومنع دخول أى واحد من الولاة العثمانيين إلى مصر : وضرب النقود المصرية باسمه ، وبذلك تمت له كل مظاهر السيادة والاستقلال . ودانت له مصر كلها بوجهها لبحرى والقبلى . وقد كان هذا الحادث بعد ميلاد الشيخ حسن العطار بعامين اثنين . ولا شك أن الشيخ حسن العطار قد بدأ في مطلع شبابه يعنى أمثال هذا الحادث . ولا شك أنه - وهو في العشرين من عمره - قد شاهد الحملة العسكرية التركية التي جردتها الدولة العثمانية على مصر سنة ١٧٨٦ لكي تسترد سلطتها فيها بعد ما كان من استقلال على بك الكبير بأمر الحكم في مصر . ولا شك أنه شهد فرار إبراهيم بك ومراد بك إلى الصعيد بعد أن نزلت الحملة التركية بقيادة حسن باشا الجزائرلى . ولا شك أنه شهد عودة إبراهيم ومراد إلى القاهرة واقتسام السلطة بينهما . وتلاشى ساطة الوالى التركي : إلى أن استقر إبراهيم بك شيخاً للبلد ، وما زال في المشيخة حتى جاء نابليون بونابرت على رأس الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ م .

ومن سوء الحظ أن الشيخ حسن العطار لم يدرك في طفولته قيمة فترة الاستقلال القصيرة التي تمتعت بها مصر في عهد على بك الكبير . وأنه قد شاهد بعينه قصة الصراع بين البكوات المماليك : ولعله قد شاهد كذلك مبلغ ما وصل إليه

ضعف الوالى التركى وفناء شخصيته واستقلاله ، حتى لقد كان يعزله المماليك حين يشاءون بأن يرسلوا إليه رسولا من عندهم يسمى الأودة باشى . يلبس رداء أسود ، ويحمل قرار العزل . ولعله قد سمع تلك القصة التى رواها الرحالة سافارى ، ورواها كذلك الرحالة فولنى فى كتابه « ثلاثة أعوام فى مصر وبر الشام » حيث يذهب الأودة باشى إلى قاعة الاستقبال التى يجلس فيها الوالى ، فيدخل عليه ، وينحنى احتراماً له ، ثم يلمس طرف السجادة ويطويها ، ويقول موجهاً الخطاب إلى الوالى : انزل يا باشا ! ثم يخرج من القاعة . وهنا يعلم الباشا الوالى أن المماليك البكوات حكموا بعزله ، وأنه لا أمل له فى البقاء بعد ذلك ، فيحزم أمتعته ، ويتوجه إلى بولاق حيث يركب منها عائداً إلى استنبول .

ولم يحمل ضعف الولاة العثمانيين أى معنى غير قوة الحكم بيد المماليك ، وهى قوة لم يكن للشعب نصيب منها ولا مشاركة فيها ، فقد كان الأمر بيد جماعة من البكوات يتنازعون على السلطان ، ولو بدلوا فى سبيله أغلى الأثمان . . .

ب - الحالة الاجتماعية

ولد الشيخ حسن العطار فى الثالث الأخير من القرن الثامن عشر كما سلف القول . ولقد استطاع مؤرخ مصرى متيقظ هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتى أن يصور لنا فى كتابه كثيراً من الصور الاجتماعية فى مصر فى ذلك القرن الذى سبق مجئ الحملة الفرنسية ، وهو قرن كان امتداداً ونهاية لقرنين قبله من الحكم العثمانى . وتستطيع فى كل صفحة من تاريخ الجبرتى أن تستخرج صورة للمجتمع المصرى فى ذلك الزمن وخاصة فى تلك العقود من السنين التى سبقت مولد الشيخ حسن العطار . وإذا كان العطار من أسرة اشتغل عائلها بالتجارة والعطارة فى أسواق القاهرة ، ولم تكن تعرف الأرض الزراعية ولا الفلاحة ، فإن صاحبنا لا شك قد أدرك - بوعيه ومشاهدته - نظام ملكية الأرض التى كان قدر قليل منها فى يد الفلاحين الذين كانوا مثقلين بالضرائب والامتاوات المفروضة يدفعونها

إلى « الملتزم » الذى كان يأخذ القرى التزماً ، ويتصرف فيها تصرف المالك فى ملكه . على أن يتكفل بدفع ضرائبها إلى الحكومة ويتولى هو بنفسه جباية المال من الفلاحين . وكان نظام الالتزام هذا يعرض بطريق المزايدة لمن يدفع له ثمناً أكبر من أصحاب النفوذ والقوة القادرين على الجباية وبعد أن كان الالتزام لمدة معينة صار يعطى للملتزمين مدى الحياة على أن ينتقل إلى ورثتهم متى دفعوا الإتاوة للحكومة .

ولاشك أن حسن العطار قد شاهد وسمع عن مساوئ هذا النظام الذى كان يعطى الملتزم حق نزع الأرض من يد الفلاح — بحجة تصديره فى دفع الضرائب — وإعطائها إلى فلاح آخر . مما جعل ملكية الفلاح التى يزرعها تحت رحمة هؤلاء هؤلاء الملتزمين . وكانت الضرائب بأنواعها ، سواء كانت مخصصة للحكومة أم لكاشف الإقليم أم حاكمه أم للملتزم نفسه ، تثقل كاهل الفلاح الذى وصفه الرحالة فولنى ووصف حالته فى عهد طفولة حسن العطار بقوله : (والفلاحون آلات مأجورة : لا يترك لهم المعاش إلا ما يقيم الموت ، وما يحصدونه من أرز وحنطة يذهب إلى موائد ساداتهم ، على حين يحتفظون لأنفسهم بالدرة ويصنعون منها خبزاً بلا خير ، لا طعم له إذا كان بارداً ، يخبزونه فى ماء وقودها من روث الأبقار والحواميس . فهذا الخبز مضافاً إلى الماء والبصل الأخضر هو طعامهم طول العام . ويحسبون سعداء إذا تخلل طعامهم هذا شيء من العسل والجبن واللبن الرائب . أما اللحم والدهن فلا يعرفونها إلا فى الأعياد والمواسم الكبرى وفى بيوت أهل السعة منهم . . .)

ولعل الله أراد بأسرة حسن العطار خيراً حين قسم لهم الاشتغال بالتجارة . فقد كان التجار أقل تعرضاً للمظالم من الفلاحين وأصحاب الأرض الزراعية . كما كانت معيشتهم فى القاهرة والعواصم الكبرى تضمن لهم من وسائل الراحة والعيش الهنىء — نسبياً — ما لاتضمنه الفلاحة . على أن التجار لم يسلموا فى كثير من الأحيان من مصادرة أموالهم لأسباب يتخذها الحكام . وهؤلاء هم التجار الذين كان يبدو عليهم اليسار . . . أما تاجر كالشيخ محمد كتن ، والد

حسن العطار ، فقد كان يعيش في ستر الله في ذكائه الصغير ، وبهذا سلم من ظلم المصادرين ، وعيون المحصلين . . .

على أنه بجانب هؤلاء المستورين من التجار كان يوجد قلة من التجار الأثرياء الذين اجتمع لهم من الغنى الوافر والجاه العريض ما لم يفت مؤرخنا الجبرتي أن يصفه . فقد وصف لنا بيت الحاج أحمد الشرايبي التاجر ، (وبيتهم المشهور بالأزيكية بيت المجد والفخر والعز . ومماليكهم وأولاد مماليكهم من أعيان مصر جرجية وأمراء ، ومنهم يوسف بك الشرايبي . وكانوا في غاية من الغنى والرفاهية والنظام ومكارم الأخلاق . والإحسان للخاص والعام . ويتردد إلى منزلهم العلماء والفضلاء) .

أما أرباب الصناعة في المجتمع المصري فكانوا - على مهارتهم في بعض الصناعات - على حال من الضنك بما يفرضه الحكام عليهم دائماً من الإتاوات والفرامات التي كان يجمعها « شيخ الطائفة » ويوردها إلى الحكومة . ولقد أساء السلطان سليم بما فعله عند خروجه من مصر من نقل أمهر الصناع وأرباب الفنون إلى الآستانة ، فقد كانت بذلك سوق الصناعة في البلاد ، وبقي على الزمن في خلال الثلاثة القرون من الحكم العثماني بعض الصناعات الدقيقة كصناعة البسط والأكلمة ، والتطريز التي كان يعجب بها الأجانب ويتهافون على شرائها وخاصة تطريز الحرير والجوخ والموسلين ، وتطريز الجلود بأسلاك الذهب والفضة ، وصناعة الكرديون والشراريب من القطن والحرير وأسلاك الذهب والفضة التي اشتهر بها العقادون ، وصناعة الخراطة التي قام بها الخراطون في عمل النوافذ والأبواب والشبابيك والمشربيات والمنابر والحواجز ، وصياغة المعادن وخرط الكهرمان والعاج .

أما الصناعات الآلية الدقيقة فلم يكن من أهل البلاد من يعرفها ، وقد لفتت هذه الظاهرة أنظار كل الرحالين الذين وفدوا إلى مصر في ذلك العصر ، فكتب فولني يقول (إن الفنون الآلية ما يزال أبسطها في دور نشأته ، وأشغال النجارة والحدادة والأسلحة بعيدة عن الإحكام والإتقان ، وأنتك لتجهد نفسك لتحصل

على من يصلح لك ساعتك في القاهرة . وإذا عثرت عليه فهو أجنبي . . .)
 على أن ذلك لم يمنع من قيام صناعات أخرى . تتصل بمواد التغذية ،
 والملبس ، وحركة العمارة والتشييد . كطحن الجبوب ، وضرب الأرز وتبييضه ،
 وطحن البن ، وعصر الزيوت ، واستقطار ماء الورد وما إليه ، واشتياار العسل ،
 وصنع الفطائر ، وغزل القطن والكتان والصوف ونسجها ، ونسج الحرير ، ونحت
 الأحجار ، وصنع البلاط ، وتنجيد الأثاث ، وعمل المسابح ، وسك النقود .
 وكان بجانب هذه المهن مهن أخرى أقل منها قدراً وأكثر اتضاعاً ،
 كالمكارين الذين وصف المولىحى بقاياهم في « حديث عيسى بن هشام » ،
 وكالحمالين ، والنوتية في النيل ، والسقائين الذين كانوا يعملون قرب الماء على
 ظهورهم ، وقد وصفهم المستشرق إدوار ولیم لين وصفاً دقيقاً شائعاً خلال رحلته
 إلى مصر في أوائل القرن التاسع عشر .

ولعل هذا التخلف في ميدان العلوم العملية التطبيقية وفي مجال الصناعات
 والفنون هو الذى دعا الشيخ حسن العطار — حين صار له رأى مسموع — إلى
 المناداة بضرورة الأخذ بالعلوم الطبيعية والأصول الهندسية ، بجانب الرسوخ
 في العلوم الشرعية والأصول الفقهية ، فإن الدين لا يتعارض مع التفكير في ملكوت
 السموات والأرض ومحاولة تسخير الطبيعة وقوى الكون للقوى العاقلة في الإنسان .
 ومن المخالفة للواقع أن نقول إن المجتمع المصرى في ذلك العهد كان مجتمعاً
 سليماً صحيحاً معافى من الأمراض . ولا شك أن الجهل والتسليم الناقص بالقضاء
 والقدر كانا من أهم العوامل في انتشار الأوبئة والعلل بصورة مزعجة . حتى كان
 مئات الألوف من النفوس تتعرض للموت في حالات الوباء .

ومن العجيب أن مصر منذ الاحتلال العثمانى لما كانت مسرحاً ومبأة لمرض
 الطاعون الذى كان يفتك بالبلاد فتكاً ذريعاً . فبعد سنت سنوات ومائة من ذلك
 الاحتلال أصيبت البلاد في زمن الوالى جعفر باشا بطاعون شديد لبث أربعة
 أشهر ومات فيه سبائة ألف نسمة . وبعد هذا الطاعون بسبع سنوات لا تزيد
 اجتاح الوباء ثلاثمائة ألف نسمة . ويزوى المؤرخ ابن أبى السرور البكرى أنه

في سنة ١٠٥٠ هـ - أي بعد الاحتلال التركي بمائة وثلاثين عاماً - وفي عهد
الوالي مقصود باشا : حصل طاعون لم ينمع بمثله ، وكان السبب في خراب
٢٣٠ بلدة من الوجه البحري . . ولا تنسى البلاد ذلك الطاعون الذي حدث
في شياخة المملوك المصري ذى الفقار بك سنة ١١٤٢ هـ - ١٧٢٩ م قبل مولد
العطار ببضعة وثلاثين عاماً . على أنه في سنة ١٢٠٥ هـ - سنة ١٧٩١ م . وسن
العطار تبلغ خمسة وعشرين عاماً - حدث بمصر الطاعون الذي مات فيه السيد
محمد مرتضى الزبيدي صاحب « تاج العروس » في شرح القاموس وأحد شيوخ
حسن العطار وعبد الرحمن الجبرتي المؤرخ .

ولقد حدث في عصر حسن العطار بعد ذلك وباعان عظيم أولهما في عهد
الحملة الفرنسية سنة ١٨٠٠ م ، وثانيهما في عهد محمد علي سنة ١٨٢٣ ، وقد
وصف الرجل الوباين بما سنعرض له في موضعه من هذا الكتاب بشيء من
التفصيل الذي يقتضيه مشاركة صاحبنا في وصف أحداث زمانه .

على أن ذلك المجتمع المريض الجاهل الفقير لم يسلم بالطبع من فعل
الخرافات فيه وانقياده للأوهام والخزعبلات . وقد ولد حسن العطار - ذلك الشيخ
الأزهري المتنور - في ظلمات تلك الخرافات ، فقبل مولده بسبع سنين لا تزيد
حدثت حادثة العنزة التي رواها الجبرتي المؤرخ في حوادث سنة ١١٧٣ هـ .
وبطل هذه الحادثة هو الشيخ عبد اللطيف كبير خدام المشهد النفيسي . فقد
جلب عنزا واخترع لها قصة ، وزعم أن السيدة نفيسة - دفينه المشهد - تكلمت
وأوصت بالعنزة ! وأن الشيخ نفسه سمع كلامها من داخل القبر ! وزعم الشيخ
الدجال أن هذه العنزة لا تأكل إلا قلب اللوز والفسق ، ولا تشرب إلا ماء
الورد والسكر المكرر ! فكان الناس يحملون إليه ذلك بالقناطير ! وحملوا إليه
النذور ! وعمل النساء للعنزة قلائد الذهب والأطواق والحلي ونحوها . . . وافتنوا
بها ! وبلغ الخبر مسماع عبد الرحمن كتمخذا المشهور كبير البكوات المماليك
في مصر وصاحب العمائر الشهيرة بالقاهرة : وكان رجلاً عاقلاً واعياً ، فاحتال
على العنتر حتى ذبحها وصاحبها الدجال لا يعلم ، وقدمها له مشوية وهو يقول له :

كل يا شيخ عبد اللطيف من هذا الرميس الثمين ! والشيخ يأكل ويقول إن لحمها طيب ، ومستو ، ونفيس ! وهولا يدري أنها عترة ! والقوم يتغامزون ويتضاحكون . فلما سأل الشيخ - في خاتمة الضيافة - عن عترة قيل له إنها هي التي كانت في الضمير بين يديه ! وويح الأمير كتحدا على دجله وشعوذته ، وأمر بأن يوضع جلد العترة على عمامته ، ويُسارَ به في شوارع القاهرة على هذه الحال ، وبين يديه الطبول والأشابير !

وكان حادث العترة واحداً من عشرات الحوادث التي تدل على عقلية المجتمع المصرى في ذلك العهد ، فقبله بخمسة وعشرين عاماً أشيع في الناس بمصر أن القيامة ستقوم بعد يومين اثنين . . . وراج هذا الكلام حتى في القرى والأرياف ، وودع الناس بعضهم بعضاً ، وكان يقول المرء لصاحبه : بقى من عمرنا يومان . . . وانقسم الناس فريقين : فريقاً لجأ إلى اللهو والحظ والخروج إلى الغيطان والمنتزهات ليتزود من الدنيا بأخر متعة ! ، وفريقاً لجأ إلى الابتهاال والصلاة يستغفر الله من ذنبه ! ومن عجب أن الفريقين صدقا الإشاعة ووقع صدقها في نفوسهم ، واستدلوا على صدقها بقول أصحاب الجفور والزائرات من اليهود والأقباط . فلما فات اليومان ولم تهم القيامة كما كانوا يتوقعون انقلبوا إلى القول بأن السيد أحمد البدوى ، والدسوقي ، والشافعى تشفعوا في ذلك ، وقبل الله شفاعتهم !! ولعل المجتمع المصرى كان يتسلى من الظلم المحدث به والضيق الواقع عليه بأمثال هذه الخرافات والخزعبلات . . . على أن شيوخ ذلك العصر وأدبائه وشعرائه كانوا يهربون من الضيق المحيط بهم إلى جو آخر غير جو الأوهام والخرافات . . . فكانوا يتسلون على إساءات الزمان بالاجتماعات التي كانوا يقيمونها ويتبادلون فيها الأشعار والأسمار ، وبالندوات إلى المنتزهات حيث يستمعون إلى حفيف الأشجار : وغناء الأطيّار . وسنلتقى في فصل مقبل بالشاعر إسماعيل الخشاب ، والشيخين حسن العطار وعبد الرحمن الجبرتي المؤرخ ، حيث كانوا يتنادمون في دار الجبرتي ، ويطرحون التكليف ، في جو أدبي ظريف . . .

٢٠٠ الحياة العقلية

كانت مصر في القرن الثامن عشر لا تزال تابعة للدولة العثمانية ، وكان مظهر هذه التبعية هو وجود الوالي التركي في مصر ، وإن كان بكوات المماليك هم الذين يتولون الحكم الحقيقي في البلاد . ولم تكن مصر وحدها منفردة بهذه التبعية فقد شاركها في ذلك الشام والعراق والحجاز واليمن وبعض بلاد الشمال الإفريقي . ولم تكن تركيا نفسها بأسعد حظاً من هذه البلاد التابعة ، من حيث الحركة الفكرية والحياة العقلية . فحينما أراد سعيد بن (١) محمد جلبي سفير الدولة العثمانية في باريس إدخال المطبعة لأول مرة في بلاده في القرن الثامن عشر وجد من الحكومة من المعارضة مثل ما لقيه من الشعب . فقد كان رجال الدين يتمحرون أشد الحرج من ذلك الاختراع الجديد ، ثم سمحوا بطبع الكتب غير الدينية ، وأخيراً سمحوا بطبع الكتب الدينية بناء على فتوى أصبدرها رجال الشرع استناداً إلى القضية المسلم بها ، وهي أن الأمور بمقاصدها . . .

والواقع أن القرن الثامن عشر الذي ولد فيه حسن العطار لم يكن إلا على غرار القرنين السابقين له . وهما السابع عشر والسادس عشر — من حيث التخلف العقلي ، والتأخر الفكري الذي ظهر في البلاد بصورة واضحة . فلقد ضاعت تلك البقية الباقية من الحركة الفكرية والعلمية والأدبية التي كانت سائدة في عصر دولتي المماليك البحرية والشرابية . وبلغ من سوء حال الأدب في ذلك العصر أنه لم ينبغ في البلاد شاعر واحد يستحق أن يشار إليه . واقتصرت الحركة العلمية على وجود طائفة من العلماء والشيوخ الذين اهتموا بتأليف الشروح والخواشي والتعليق والتقارير ، بدلاً من الاهتمام بالابتكارات الأصلية في

(١) ذكر الأستاذ عمر النعوق في كتابه « في الأدب الحديث » ج ١ أن محمد جلبي سفير الدولة العثمانية هو الذي أراد هذا ، والواقع أنه ابنه سعيد الذي صار صديقاً أعظم بعد ذلك . وانظر تاريخ الطباعة في الشرق العربي . . .

العلوم . وإذا كان عصر دولتي المماليك قد سمي عصر كتب الموسوعات والمجاميع العلمية ، فإن العصر العثماني يجملته قد سمي عصر الشروح والخواشي . ومن عجائب ما حدث في القرون الثلاثة للاحتلال العثماني أن اللغة التركية لم تستطع أن تنافس اللغة العربية أو تطردها في أوطانها ، ولكنها استطاعت أن تفسد ملكة اللسان العربي عند أصحابه . . . فقد رأينا ملكة البعير هبطت عند كثير من الأدباء والمؤلفين ، كما رأينا الأصالة الفكرية قد استحالت إلى ضحالة ، ورأينا القرائح العربية قد جمدت ولم يعد لها ذلك الخصب الذي عهدناه في عهود القوة العربية ، وهبط مستوى التأليف الخالق المبتكر إلى درك من الجدل العميق ، والتعليق السقيم ، والخواشي المزدولة التي لا ترتفع إلى مستوى الأصلاء في التفكير ، والتي لا تعدو أن تكون مجموعة من الاعتراضات المفردة التي لا تدل على استجماع فكر ، ولا تأهل رأى ، ولا استنباط علم . . . ومن هنا لم يظهر في القرن الثاني عشر الهجري الذي ظهر فيه حسن العطار إلا قلة نادرة من أمثال السيد مرتضى الزبيدي شارح القاموس المحيط ، والشيخ محمد الصبان الذي اشتهر بحاشيته على شرح الأشموني ، ولم يكن له من الأصالة في علم النحو مثل ما كان لابن هشام النحوي المصري من رجال القرن الثامن الهجري ، وصاحب شذور الذهب ، ومغني اللبيب ، وقطر الندى ، والذي شهد له المؤرخ ابن خلدون بقوله : « ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام ، أنحى من سيبويه . . . » حتى الشيخ عبد الغني النابلسي الرحالة اللغوي المنطقي المؤرخ المتصوف المشهور ، والذي كان يلقب بأستاذ الأساتذة ، لم يكن له من الأصالة في التأليف والفقه والفتوى ما يرفعه إلى مقام المؤلفين المبتكرين . . .

وإذا كان عرضنا للمصنفات التي ظهرت في عصر ظهور الشيخ حسن العطار يدلنا على المتجه الفكري الذي وصلت إليه الحركة الثقافية في ذلك الزمان ، فإن عرضنا لطائفة من شعر ذلك العصر يدلنا على المستوى الذي هبط إليه التعبير والخيال فيه . ولعل الكلام هنا يقوى بالاستشهاد أكثر مما يقوى بإرسال الأحكام .

ففي سنة ١١٨٢ هـ - سنة ١٧٦٨ م مات شيخ الإسلام أحمد الخالدي

الأزهري : فراه الشاعر الشيخ مصطفى الصاوى ، وكان ياقب بنادرة العصر ،
بقصيدة يقول فيها :

يادهر مالك با لمكاره تجترى ولفقد أرباب المكارم تحترى
تغتال منا ماجداً مع ما جد طابت طباً ثعه بطيب العنصر
تردى الكريم ابن الكريم وما ترى حقاً لعهد الماهر المتبصر
إن أصبح المولى عزيز عشيرة أمسينته فى ذل ذل أحقر
يغدو كريم النفس وهو مقدم فيروح فى هون به متقهقر
وإذا حلت بالصفو حالة حاله مررتها ببغيض عيش أكدر
لو كنت ترعى فى الأفاضل حقهم أبقيت مجمع شملهم فى الأعصر

ومن عجب أن الجبرى المؤرخ الذى ياقب الشاعر مصطفى الصاوى هذا
بلقب نادرة العصر ، يصف هذه القصيدة بأنها فريدة . . .

ولا يزيد الشيخ عبد الله الإدكاوى - الشاعر المصرى فى أوائل عهد حسن
القطار - شيئاً على زميله الشاعر مصطفى الصاوى . ولكنهما كانا نموذج الشاعر
الرقيق فى عصرهما ، حتى ليغنى الجبرى المؤرخ فى تقديرهما وخلع الثعوت عليهما .
ومن الشعر الذى رواه له صاحب « عجائب الآثار » قوله فى الرد على المنجمين :
الله يعلم ما ما يكون ، وما به تسرى الرياح ، وماله يجرى الفلك
فدع المنجم فى ضلالته وما ينبيك عنه فى مقالته أفك
واحذر تصدقه فتهلك جاهلا يا مدعى الإيمان فيمن قد هلك
علم الآله محجب إلا على من يرتضيه من رسول أو ملك
هذا اعتقادى والذى ألقى به ربى لأسلك ناجيا مع من سلك
ولم يكن أى قطر عربى فى ذلك العهد بأسعد حالاً من مصر فى الشعر
وغیره من فنون الأدب والعلم . فقد ظهر فى ذلك الزمان السيد جعفر السقاف

بأعلى ، وكان يلقب بأديب جزيرة الحجاز ، ومع هذا لم يكن يتمتع في شعره إلا من البئر التي يتمتع منها بقية الشعراء في عصره
ولقد ساعدت عجمة الدولة المتبوعة ، وجهل الحاكم ، واستهتار الوالي العثماني وضعفه ، وصراع البيكوات المماليك وانشغالهم بأمور أنفسهم عن إصلاح أمور الشعب ، وتعطيل المدارس ، وتبديد خزائن الكتب — ساعد كل ذلك على تأخر الحالة العلمية والأدبية في البلاد ، حتى صارت إلى حد كان لابد بعده من بزوغ نهضة جديدة . تعوض ما فات ، وتجدد ما اندرس ، فكانت تلك النهضة التي ظهرت في القرن التاسع عشر . والتي كان رائدها الشيخ رفاة الطهطاوى تلميذ الشيخ حسن العطار .

ولا شك أن تعطيل المدارس التي كانت مزدهرة في أيام الفاطميين والأيوبيين ودولتي المماليك كان عاملاً من عوامل التخلف في البلاد ، وإلى هذه الحقيقة يشير على مبارك في الجزء الأول من « الخطط التوفيقية » بقوله : (من ابتداء القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر يعني مدة ثلاثة قرون ، قد أهمل أمر المدارس ، وامتدت أيدي الأطماع إلى أوقافها ، ونصرف فيها النظر على خلاف شروط وقفها ، وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة والخدمة فأخذوا في مفارقتها . وصار ذلك يزيد في كل سنة عما قبلها لكثرة الاضطرابات الحاصلة بالبلاد ، حتى انقطع التدريس فيها بالكلية . وبيعت كتبها وانتهت ، ثم أخذت تشتت وتتخرب من عدم الالتفات إلى عمارتها ومرمتها . فامتدت أيدي الناس والظلمة إلى بيع رخامها وأبوابها وشبابيكها . حتى آل بعض تلك المدارس الفخمة والمباني الجليلة إلى زاوية صغيرة تراها مغلقة في أغلب الأيام ، وبعضها زال بالكلية وصار زريبة أو حوشاً أو غير ذلك ، والله عاقبة الأمور . . .)

والواقع أنه لولا وجود الأزهر — على الرغم مما كان فيه من تخلف وجمود في مواد الدراسة — لقضى على الحياة الفكرية بمصر قضاء مبرماً . فقد كان الشيوخ الذين ينخرجون فيه مبعث ذلك البصيص من النور في البلاد ، وكانت الكتب الأزهرية — على الرغم من عقم مناهجها وعدم جدواها — مثاراً لانشغالات ذهنية ،

وإن كانت العلوم العقلية والرياضية والطبيعية قد هجرت في الأزهر تماماً ، حتى لقد تعجب الوزير أحمد باشا كور الوالى التركى على مصر سنة ١١٦٦هـ - أى قبل مولد العطار بعشرين عاماً - من عدم وجود العلوم الرياضية في الأزهر مع شدة رغبته في طلبها ، فلما استقر مقامه بالقلعة وقابل صدور العلماء ، ومنهم الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الأزهر تكلم معهم في الرياضيات ، فأجابوه بأنهم لا يعرفون هذه العلوم ، فتعجب وسكت ، ثم انتهز فرصة اختلاؤه بالشيخ فقال له : المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم ، وكنت في غاية الشوق إلى الحمىء إليها ، فلما جئتها وجدتها كما قيل : تسمع بالمعبدى خير من أن تراه . . . ولما علم أن بين أهل الأزهر قلة ممن يعرفون العلوم الرياضية - كالشيخ حسن الجبرتى والد مؤرخنا - فرح بالتردد عليه وقراءة كتب الرياضة معه .

وكان الشيخ حسن العطار من هذه القالة الأزهرية التى أدركت ضرورة العلوم العقلية والطبيعية لنهوض البلاد ، فإنه على الرغم من مشاركته الكثيرة في كتب الحواشى المتعددة التى سيجىء بيانها في موضع آخر من الكتاب ، كان صاحب فضل في التنبيه إلى قيمة العلوم الطبيعية ، وإلى ضرورة إدخال العلوم العصرية ، وله في ذلك العبارة المأثورة التى يقول فيها : (إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها) . ولا شك أن اتصال حسن العطار ببعض علماء الحماة الفرنسية قد أفاد عقليته المتحررة : كما أن اطلاعه على كتبهم وآلاتهم التى حملوها إلى مصر معهم قد أكد له قيمة العلم والتجربة ، ويقرر لنا على مبارك في الجزء الرابع من خططه أن الشيخ حسن العطار كان يتعجب مما وصلت إليه الأمة الفرنسية من المعارف والعلوم ، ومن كثرة كتبهم وتحريرها ، وتقريبها لطرق الاستفادة .

الفصل الثانى

حسن العطار فى عصره

١ - موجز حياة

ولد الشيخ حسن العطار سنة ١١٨٠هـ^(١) - سنة ١٧٦٦ م بالقاهرة ، وكان أهله من المغرب فانتقلوا إلى مصر . وكان أبوه عطاراً - ومن هنا جاءه هذا اللقب . واسم والده الشيخ محمد كتن ، وكان لهذا الوالد مشاركة فى بعض العلوم كما يدل عليه قول المترجم له فى بعض كتبه : « ذاكرت بهذا الوالد رحمه الله » . وقد استخدم الوالد ولده فى شئونه ، ولما رأى منه إقبالاً على العلم ساعده على تحصيله ، فكان يتردد على الأزهر ويحضر حلقات كبار مشايخه فى ذلك العصر ، ومنهم شيخاها محمد الأمير ومحمد الصبان .

ولما جاء الفرنسيون إلى مصر سنة ١٧٩٨ هرب إلى الصعيد^(٢) خوفاً على نفسه من أذاهم ، ثم عاد إلى القاهرة بعد قليل فاتصل ببعض رجال الحملة من العلماء ، فأفاد منهم واطلع على كتبهم وآلاتهم وتجاربهم العلمية فكان ذلك بدء اتجاهه إلى تقدير العلوم الطبيعية والمناذاة بضرورتها . وقد اشتغل فى الوقت نفسه بتعليم اللغة العربية لبعض هؤلاء العلماء الفرنسيين . ويعترف العطار باتصاله بالفرنسيين فى مقامة له يتحدث فيها عن الكتب التى رآها عند القوم قائلاً : (وكلها فى العلوم الرياضية والأدبية . وأطلعونى على آلات فلكية وهندسية) . وقد اشتغل فى أثناء الحملة بالتدريس فى الأزهر ، فكان يقرأ على طلبته

(١) ذكر الزركلى فى الأعلام أنه ولد سنة ١١٩٠ هـ . والذى أثبتناه هو الصواب كما ذكره على مبارك فى المخطوط التوفيقية . وذكر عمر الدسوقي صاحب كتاب « فى الأدب الحديث » أنه ولد سنة ١٨٦٦ م وهو خطأ مطبعى ظاهر .

(٢) ذكر عبد الرزاق البيطار فى « حلية البشر أنه فر إلى دمياط ، وهو يوم والصحيح ما حققناه .

شرح الأزهري للشيخ خالد في علم النحو ، ويشير إلى ذلك في مقدمة حاشيته على الأزهري . ونراه بعد هذا - ولغير سبب معروف - يخرج من مصر فاراً إلى البلاد الزومية سنة ١٢١٧ هـ - سنة ١٨٠٢ م مستصحباً بعض كتبه ، ويشير هنا إلى ما دهم مصر (من حادثة الكفرة الفرنسيين) . ولعل الحوادث التي أعقبت خروج الفرنسيين من مصر قد أرغمته على الفرار من البلاد . وفي سنة ١٨١٠ م يدخل الشام قادماً من بلاد الروم : فيلتبس منه أهل العلم في دمشق قراءة شرح الأزهري ، فيفعل رجاء نفعهم ، ويكون من تلاميذه هناك الشيخ حسن البيطار الذي استجازه فأجازه . . . وأقام العطار بالشام خمس سنين : ثم عاد إلى مصر سنة ١٨١٥ م بعد أن غاب عنها ثلاثة عشر عاماً قضاها في التجوال والترحال . وكانت الأمور في مصر قد استقرت ، وصارت ولاية البلاد لمحمد علي فعاد صاحبنا إلى التدريس بالأزهر^(١) .

وفي سنة ١٢٤٦ هـ - سنة ١٨٣٠ م تولى الشيخ حسن العطار مشيخة الأزهر بعد الشيخ أحمد الدهموي^(٢) ، فأداره على أحسن وجوه التدبير ، وظل في منصبه إلى أن توفي سنة ١٨٣٥ وهو شيخ للأزهر ، حيث عين خلفاً له في مشيخة الأزهر . الشيخ حسن القويسني المكفوف البصر ، وصاحب التأليف الفقهية الكثيرة . ومن لطائف الموافقات أن يتعاقب على مشيخة الأزهر عالمان اسم كل منهما « حسن » .

وقد استغل أحد ظرفاء ذلك الزمان من الشعراء هذه اللطيفة فقال يمدح الاثنين ويعترف بفضلهما ويجمع بين التعزية والتهنئة :

(١) توم عبارة جرجي زيدان و عمر الدسوقي أن العطار بدأ يتولى التدريس في الأزهر بعد عودته من الشام سنة ١٨١٥ ، والصواب أنه درس في الأزهر في أثناء الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ كما صرح هو بعبارة في حاشيته على الشيخ خالد . . .

(٢) ذكر الأب لويس شيخو أن العطار تولى مشيخة الأزهر بعد الشيخ محمد المروسي ، وهو خطأ ، والصواب ما حققناه ، وقد تابعه على هذا الخطأ الأستاذ عمر الدسوقي الذي نقل عن طرازي وشيخو .

ولئن مضى (حسن) العلوم لربه فلقد أتى (حسن) وأحسن من حسن أنت المقدم رتبة ورياسة وديانة من ذا الذى ساواه؟ من؟ وقد عُرف الشيخ حسن العطار بمؤلفاته الكثيرة، وخاصة حواشيه على كتب النحو والتوحيد والأصول والبلاغة. كما عرف بأسلوبه الأدبي وعبارته الإنشائية الأنيقة التى كانت تجرى على طريقة الزخرف والمحسنات. وله أشعار رقيقة سنعرض لها فى فصل خاص. وبلغ من اهتمامه بالشعر أنه جمع ديوان ابن سهل الأندلسى وبوبه.

أما ميله إلى العلوم الطبيعية والرياضية والفلك والطب فبدل عليه كتبه ورسائله فى كيفية العمل بالأسطرلاب، والربيعين المقتنطر والمحجب، والطب والتشريح، وأشكال التأسيس فى علم الهندسة، هذا إلى ما كان من إتقانه رسم المزاويل الليلية والنهارية بيديه.

وقد امتاز حسن العطار بقراءته الواسعة العميقة للكتب العربية والمعرية فى زمانه. ولم يختص بعلم معين، أو بفن بعينه من الفنون، ولكنه كان حريصاً على الإفادة من كل علم. وكان يطرز الكتب التى يقرؤها بهواه شدة تعليقاته، ويقول فى ذلك تلميذه الشيخ رفاعه الطهطاوى: (كان له مشاركة فى كثير من العلوم، حتى فى العلوم الجغرافية، فقد وجدت بخطه هوامش جلييلة على كتاب تقويم البلدان لإسماعيل أبى القداء سلطان حماة المشهور أيضاً بالملك المؤيد. وللشيخ المذكور هوامش أيضاً وجدت بها أكثر التواريخ وعلى طبقات الأطباء وغيرها. وكان يطلع دائماً على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها، وكان له ولوع شديد بمسائل المعارف البشرية. (١).

وتوفى العطار سنة ١٢٥٠ هـ - سنة ١٨٣٥ (٢).

(١) مباحج الألباب المصرية: لرفاعة الطهطاوى: مطلب أنه ينبغي للعلماء الشرعيين أن يتشبهوا أيضاً بمعرفة المعارف البشرية كالعلوم الحكمة العملية. ص ٣٧٥.

(٢) ذكر الشيخ عبد الرزاق البيطار فى حلية البشر أنه توفى سنة ١٢٣٥ هجرية، وهو خطأ غلط فيه صاحبه بين رقمى الأحاد والمشراف فى التاريخين الهجرى والميلادى.

٢ - شيوخ وأساتذة

يذكر الأب لويس شيخو اليسوعي ، والكونت فيليب طرازي اثنين من رجال الأزهر على أنهما بعض كبار المشايخ الذين أخذ حسن العطار العلم عنهم ، وهما الشيخ محمد الأمير ، والشيخ محمد الصبان . والواقع أن العطار نفسه لم ينجحنا إلى أن نتساءل عن أسماء الشيوخ الذين أخذ عنهم ، ففي إجازته العلمية التي كتبها للشيخ حسن البيطار الدمشقي في أثناء إقامته بالشام يذكر لنا قائمة الشيوخ الذين « اقتبس أنوارهم ، واغتم أسرارهم » . ونذكره يقول بعبارته : (منهم) والله الحمد عدد كثير ، كل له قدر خطير . فهم العلامة الشيخ محمد الصبان ، والقهامه الشيخ أحمد بن يونس ، والشيخ عبد الرحمن المغربي ، والشيخ أحمد السجاعي ، والشيخ أحمد العروسي ، والشيخ عبد الله الشرقاوي ، والشيخ محمد الشنواني ، والشيخ عبد الله سويدان وغير هؤلاء من السادة الشافعية . وأما من السادة المالكية فالإمام الشيخ محمد الأمير ، والشيخ محمد عرفة الدسوقي ، والشيخ أحمد برغوث ، والشيخ البيلي وغيرهم ^(١) ولتقف لحظة مع كل واحد من هؤلاء الذين كانوا شيوخ زمانهم في القرن الثاني عشر . فالصبان هو صاحب الشروح والخواشي الكثيرة ، وكان ملازماً للجبرتي الوالد . ولأزهره الإملاق أول أمره ، ثم أقبلت عليه الدنيا وازداد وجاهة وشهرة وخاصة بعد اتصاله بالوالى إسماعيل كتمخدا . وتوفى سنة ١٧٩٢ م . ويشير إليه العطار دائماً في حاشيته على شرح الأزهري بقوله : شيخنا .

والشيخ أحمد بن يونس كان من المشتغلين بالنحو والأصول والجدل ، وله حواش ورسائل كثيرة : وكان تلميذاً للجبرتي الوالد مدة ، وتوفى سنة ١٧٩٤ م . والشيخ أحمد السجاعي كان من فقهاء الشافعية بمصر : وله شروح وحواش ومتون ورسائل في الفقه والأدب والتصوف والمنطق . وقد اشتهر بحاشيته على شرح القطر لابن هشام النحوى . وتوفى سنة ١٧٨٣ م . والشيخ أحمد العروسي كان

(١) حلية البشر ج ١ ص ٤٩١ .

شيخاً للأزهر بعد وفاة الشيخ أحمد الدمنهورى ، وقد تتلمذ عليه الجبرقى
المؤرخ وترجم له ، ولما توفى سنة ١٧٩٣ رثاه الشاعر السيد إسماعيل الخشاب
بقصيدة مطلعها :

تغير وجه الدهر وازور جانبه وجاءت بأشراط المعاد عجائبه
وكدر صفو العيش وقع خطوبه وقد كان ورداً صافيات مشاربه

وقد اشتهر العروى بحاشيته على الملوى على متن السمرقندية فى الاستعارات .
والشيخ عبد الله الشرقاوى كان فقيهاً نحويّاً محدثاً مؤرخاً ، تخرج فى الأزهر
وتولى مشيخته لبضعة عشر عاماً وكانت الحملة الفرنسية فى خلال عهده بالمشيخة ،
وكان أحد العلماء العشرة الذين كوّن منهم بونايرت ديوان القاهرة ، وقد اشترك
فى البيان الذى أكرهوا على توقيعه للتحذير من معارضة سلطات الاحتلال
الفرنسى . وقد اشتهر بكتابه « تحفة الناظرين ، فىمن ولى مصر من السلاطين » .
ويجىء ترتيبه الحادى عشر فى شيوخ الأزهر منذ إنشاء هذه الوظيفة . والشيخ
محمد السنوائى كان من علماء الأزهر المشتغلين بالفقه والحديث والنحو ، وتولى
مشيخة الأزهر بعد وفاة الشرقاوى مباشرة ، وظل فيها ست سنوات ، وله حواش
فى الحديث والتوحيد ، وتوفى سنة ١٨١٨ م . والشيخ عبد الله سويدان كان من
علماء الأزهر المشاركين فى الحديث والوعظ والأصول ، واشتهر بسويدان ، وكان
كفيف البصر ، وله مؤلفات فى مصطلح الحديث وتوفى سنة ١٨١٩ م والشيخ .
محمد الأمير كان من فقهاء المالكية الكبار وعالماً بالعربية . وهو من بلدة سنوب
من صعيد مصر ، ولذا سُمى بالسنباوى ، واشتهر بالأمير لأن جده كانت له
إمرة فى الصعيد ، وهو كالشيخ حسن العطار من حيث أصوله المغربية . وأكثر
كتبه حواش وشروح وتقارير ، واشتهر بحاشيته على كتاب المغنى لابن هشام ،
وبشرحه المختصر خليل فى الفقه المالكي ، وكان شيخاً مبعجلاً ممدحاً . وللشاعر
إسماعيل الخشاب فيه مدائح متنوعة مذكورة فى ديوانه المطبوع بالحوادث ، وتوفى
الأمير سنة ١٨١٧ م . والشيخ محمد عرفة الدسوقي كان من علماء المالكية ،

وله مشاركات في الفقه والكلام والبلاغة والنحو والهندسة والهيئة والتوقيت ، واشتهر بحاشيته على المغني ، وحاشيته على شرح السنوسي على مقدمة أم البراهين في العقائد ، وحاشيته على شرح البردة لجلال الدين المحلي . وتوفي سنة ١٨١٥ م .
والشيخ أحمد يرغوث كان من علماء المالكية كذلك ، وهو من مواليد قرية اليهودية بالبحيرة ، وكان فيه انعزال عن الناس ، وانكسار وتواضع . ويذكر المؤرخ عبد الرزاق البيطار أنه (لم يترى بزي الفقهاء ، ولم يظهر بمظاهر العلماء ويمشي في حوائجه لنفسه . . .) وتوفي سنة ١٨٠٩ م . والشيخ أحمد البيلى كان من علماء المالكية أيضاً ، وقد ترجم له الخبزي ، وعلى مبارك ، والبيطار ، وعمر رضا كحالة : وهو من بلدة بني عدي من صعيد مصر . وقد اشتهر بحافظة قوية غريبة ، فكان يملئ على الطلاب ما ذكره أصحاب المتون والحواشي دون رجوع إلى الكتب وتوفي سنة ١٨٠٠ م .

هؤلاء هم شيوخ الشيخ حسن العطار وأساتذته . وهم كما ترى يمثلون ثقافة الأزهر واتجاهاته العلمية والفكرية في ذلك العصر . وإن كان المترجم له قد رأى بعيد نظره ، وسعة أفقه ، وشدة تطلعاته أن يتجاوز الدائرة التي كانت تحيط بعلوم الأزهر ومؤلفات رجاله إلى دائرة أوسع تلائم العصر ، وتحقق تسخير الإنسان لقوى الطبيعة في هذا الكون الرحيب . . .

٣ - تلاميذ نجباء

إذا كان الشيخ حسن العطار قد صنَّع غلى يد طائفة كريمة من علماء وقته ومشهورى عصره ، فقبس منهم ألوان المعارف التي كانت سائدة في زمانه ، فإن الله قد جعل منه شيخاً مباركاً وأستاذاً كريماً تخرج بعلمه وأدبه جماعة من كبار الرجال في عصره . ويكفيه فخراً أن يكون الشيخ رفاعة الطهطاوى رائد الفكر وإمام النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر أحد تلاميذه النجباء . ويلذكر مؤرخنا عبد الرحمن الراعى أن الشيخ رفاعة الطهطاوى أخذ العلم عن الشيخ حسن

الطار ، فأحبه الشيخ لما آتته فيه من الذكاء والانكباب على العلم ، وقربه إليه ، وحفه برعايته . وكان التلميذ رفاة يتردد على شيخه كثيراً في بيته ، ويأخذ عنه العلم والأدب والجغرافية والتاريخ . ولما كان الطار ميالاً بطبعه إلى العلوم العصرية ولا يرى الانحصار في دائرة كتب الشرع فحسب ، فقد أودع هذا الميل في نفس تلميذه رفاة الطهطاوى ، مما أهله بعد ذلك ليكون إماماً للبعثة العلمية في باريس ، وبما فتح ذهنه إلى البحث وسلامة التفكير والإسهام في نقل العلوم عن الغربيين حتى يفيد منها أهل وطنه . وهنا يظهر فضل الطار على رفاة الطهطاوى ، فهو أول من وجهه إلى الاغتراف من موارد العلم والأدب ، وهو أول من قوم عبارته وحررها من كثير من قيود عصره ، وهو أول من دله على قيمة العلوم العملية الطبيعية وضرورتها بما لا يقل عن أهمية العلوم الشرعية .

ولقد كان رفاة أثيراً عند شيخه حسن الطار ، وطالما فتح له الشيخ بيته وصدره وأذنه ليسمعه من رائق الشعر وفائق النثر (ما يستدل به شيخه على أنه وحيد عصره ، وفريد مصره ، وأنه صاحب القرينة الودادة ، والفكرة النقادة) . وما ضن الشيخ على تلميذه بعطف ولا رعاية ولا توجيه ، فهو الذى اختاره عند محمد على ليكون إماماً للبعثة بباريس ، وهو الذى أوصاه بتأليف كتاب في هذه الرحلة ، وهو الذى فتح عينيه على القيم الكبرى للحياة والعلم الحقيقى لا علم الحواشى والشروح ونُدع المؤرخ صالح مجدى يحدثنا في كتابه « حلية الزمن » عن هذه التلمذة قائلاً : (وأما تلمذته - يعنى رفاة الطهطاوى - للشيخ حسن الطار المتوفى في اثنين وعشرين من شهر ذى القعدة سنة خمسين ومائتين وألف^(١)) وقد آلت مشيخة الأزهر إليه قبل العلامة الشيخ حسن القويسنى ، فكانت مستمرة من مبدأ دخول صاحب الترجمة إلى خروجه من الأزهر بجمعية من أرسلوا من مصر إلى باريس لاكتساب العلوم الأجنبية ، حيث انتخبه لذلك العلامة المشار إليه ، وأوصاه بعمل رحلته الباريسية الآتى ذكرها عند بعض مؤلفاته وتعريباته .

(١) يحقق لنا هذا النص سنة وفاة الشيخ حسن الطار ، ويصحح ما ذكره المرحوم الشيخ صيد الرزاق البيطار خطأ في حلية البشر .

وكان للمرحوم فضيلة الامتياز عند الأستاذ العطار عن سائر طلبته ، وكثيراً ما كان يلازم بيت الأستاذ المذكور في غير الدروس ليتلقى عنه علوماً أخرى ، كالناريخ والجغرافية والأدب (١) .

وثاني تلاميذ الشيخ حسن العطار هو الشيخ حسن قويدر ، وهو مغربي الأصل كأستاذه ، ولكن أسرته نزحت إلى فلسطين وأقامت بها ، وولد هو بالقاهرة . وكان مشهوراً بالعلم والأدب ، ولكنه جمع بين ذلك وبين أسباب الرزق فكان يتعاطى التجارة بين مصر والشام ، ويملاً أوقات فراغه بالتأليف والمذاكرة في العلوم . ولقد بلغ من إعجابه بشيخه العطار أنه ألف كتاباً في الإنشاء والمراسلات عنوانه « زهر النبات » على غرار الكتاب الذي ألفه حسن العطار في الإنشاء . كما أنه شرح منظومة حسن العطار في النحو شرحاً مطولاً ، ولم يكتف التلميذ بشرح منظومة أستاذه بل قرظها شعراً يقول فيه :

منظومة الفاضل العطار قد عبقمت منها القلوب بريا نكهة عطره
لو لم تكن روضة في النحو يانعة لما جنى الفبكر منها هذه الثمرة
في ظلمة الجهل لو أبدت محاسنها والليل داج أرانا وجهها قمره
قالوا جواهر لفظ . قلت : لا عجب بحر البلاغة قد أدى (٢) لنا درره
ومن مؤلفاته : نيل الأرب في مثلثات العرب ، وشرح منظومة العطار في النحو ، وزهر النبات ، وشرح على مزدوجته البديعية ، ورسالة الأغلال والسلاسل ، في مجنون اسمه عاقل (٣) .

وثالث تلاميذ حسن العطار هو الشيخ محمد عياد الطنطاوي . ونكتفي هنا بما ذكره المستشرق الروسي الكبير أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه « حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي » قائلا : (كذلك كان من معلمى الطنطاوي ،

(١) حلية الزمن بمناقب خدام الوطن - لصالح مجدى ص ٢٥ .

(٢) الآداب العربية للويس شيخو - ج ١ ص ٥٣ ، وحلية البشر لبيطار ج ١ ص ٥٥٥ .

(٣) أميان البيان لحسن السنوحي ص ١٩ .

حسن العطار ١٧٦٦ هـ - ١٨٣٤ م^(١) . ولم يكن الشيخ حسن العطار عالماً فحسب ، بل وشاعراً أيضاً ، وقد رأى من المستطاع أن يتقرب من الفرنسيين ليتعرف إلى تفوق ثقافتهم ، ولم يرفض في أيام شيخوخته أن يكون محرراً لأول جريدة عربية مصرية أسسها محمد علي ، وفي السنوات الأخيرة من عمره صارت إليه مشيخة الأزهر^(٢) .

أما رابع تلاميذ حسن العطار فهو الشاعر المصري الشيخ محمد شهاب الدين ، من مواليد مكة ، ومن المقيمين بمصر . ويذكر جرجي زيدان^(٣) أنه تفقه في الأزهر على الشيخين : العروسي وحسن العطار ، كما يذكر ذلك الأب لويس شيخو اليسوعي . ويزيد شيخو على هذا قائلاً : إنه لما أنشأ الشيخ حسن أول جريدة (كذا) طبعت في الشرق وهي الوقائع المصرية سنة ١٨٢٨ اتخذ شهاب الدين كمساعد له في إنشائها (كذا) ثم خلفه في إدارتها سنة ١٢٥٢ - سنة ١٨٣٦ : وهذا كلام يحتاج إلى الوقوف أمامه ، فإن مسألة إنشاء حسن العطار للوقائع وتحريره فيها لا تزال موضع خلاف بين المحققين . . . وسنعالجها في فصل خاص . وقد ترك لنا الشاعر محمد شهاب الدين من مؤلفاته « سفينة المالك » ونفيسة الفلك » وفيها نماذج كثيرة من الموالى والموشحات والأزجال والأهازيج التي يتغنى بها ، كما ترك لنا « ديوان شهاب الدين » وكان لنا حظ دراسته وتحليله في كتابنا « تراجم عربية » .

٤ - بين التدريس والمشيخة

جمع الشيخ حسن العطار في حياته المباركة بين التدريس في الأزهر أول عمره ، ومشيخة الجامع الأزهر في ختام حياته . وكثير من علماء الأزهر المشهورين

(١) هذا التاريخ الميلادي يحتاج إلى تصحيح ، وصوابه سنة ١٨٢٥ كما ذكرنا قبل .
 (٢) انظر كتاب « حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي » من مراجعتنا وتحققنا وتعليقنا ، وهو من منشورات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .
 (٣) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٢١٣ .

لم يجمعوا بين الاثنين . ، كالشيخ الأمير ، والصبان ، وعلى الصعدي ، وأحمد السجاعي ، ومحمد عرفة الدسوقي وغيرهم .

وتوهم عبارة جرجي زيدان ، والأب لويس شيخو ، والكونت فيليب طرازي أن العطار ابتداء التدريس في الأزهر بعد عودته من رحلته الطويلة إلى بلاد الروم والشام سنة ١٨١٥ م ، وقد نقل الأستاذ عمر الدسوقي عنهم هذه العبارة بما تحمله من الوهم والإيهام دون تمحيص^(١) . والحق أنها مزلفة كان يجب التفتن إليها ! فإن العطار نفسه يصرح في مقدمة كتابه : « حاشية على شرح الأزهري في علم النحو للشيخ خالد » بأنه كان يدرس هذا الكتاب ويقرؤه على طلبته بالأزهر في خلال الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٩ ، كما أن العطار في إجازته التي كتبها للشيخ حسن البيطار العالم الدمشقي ذكر في ختامها أنه (خادم العلم بالأزهر الشريف) . وكان ذلك بالطبع في أوائل سنة ١٨١٠ م — أي قبل عودته إلى مصر بخمس سنوات .

وكانت حلقة الشيخ العطار بالأزهر تنقص بالطلاب ، فقد كان العلماء — كما ذكره مؤرخ معاصر — يتركون حلقات غيره ، ويتكاثرون على حلقاته يستمعون^(٢) . وقد نقل هذا المؤرخ هذه الحقيقة عن كتاب الخطط التوفيقية لعل مبارك حيث يقول : (وقد مضت مدة على تفسير البيضاوي لا يقرؤه أحد ، فحضره أكابر المشايخ . فكانوا إذا جلس للدرس تركوا حلقتهم وقاموا إلى درسه)^(٣) .

ولا شك أن تحرر الشيخ حسن العطار الفكري وبعده من الجمود ودعوته الجديدة إلى الأخذ بالعلوم الحديثة مع الاهتمام بالعلوم القديمة قد جذب إليه الطلاب من كل فج ، وهذا هم إلى مجلسه في أثناء تدريسه بالأزهر . ويستوى في ذلك مقامه بمصر أم بالخارج . ففي مقامه بدمشق إلفت إليه أنظار طلبة العلم .

(١) انظر « في الأدب الحديث » لعمر الدسوقي ج ١ ص ٤٦ ، وزيدان ج ٤ ص ٢٣٢ .

وتاريخ الصحافة العربية لطرازي ج ١ ص ١٢٩ وتاريخ الآداب العربية لشيخو ج ١ ص ٥٢ .

(٢) مصر في القرن الثامن عشر — محمود الشراوي — ج ١ ص ٥٠ .

(٣) الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٣٩ .

هناك (فلتلقاه أهلها بما لاق ، وعقدوا على تفوقه وتفردّه بالفضائل كلمة الاتفاق) كما يقول مترجم سيرته عبد الرزاق البيطار .

ومن عجب أن النقص الذي كان يشكو منه العطار في برامج الأزهر وكتبه واتجاهاته العلمية قبل أن تؤول إليه مشيخة الأزهر ، لم يتناوله بالإصلاح والمعالجة بعد أن آلت إليه المشيخة . وقد كان يُرجى منه — بعد تنبيهه لحالة الأزهر وهو مدرس فيه — أن يعمل شيئاً لإصلاحه ، ولكنه لم يصنع في هذا السبيل شيئاً . ولعله جارى اتجاه محمد على في إغفال شأن الأزهر ، فقد رأى هذا الوالى — بما أوتيّه من مكر عميق — أن يترك الأزهر على حاله ونظامه القديم ، مخافة أن يثير سخط العلماء إذا حاول إصلاحه وجعله يساير حركة التقدم العلمى الحديث . ولا نقول — كما قال عبد الرحمن الرافعى — أنه لم يجد بين العلماء من يضطلع بهذه المهمة ويعهد إليه بها (١) ، فقد كان من الممكن أن يقوم بهذا الإصلاح الشيخ حسن العطار . وهو قادر عليه . وكان من الممكن أن يقوم به الشيخ رفاعه الطهطاوى ، ولكن الوالى رأى أن الوقت لم يكن مناسباً بعد للإصلاح ، وأن النفوس لم تكن مهياة له .

وقد تولى العطار مشيخة الأزهر سنة ١٨٣٠ بعد ما أوفت سنه على الخامسة والستين ، فجاء بعد الشيخ أحمد بن على الممهورى الشافعى — لا بعد الشيخ أحمد (٢) العروسى كما ذكر خطأ بعض المؤرخين ومن تابعهم من المؤلفين . ومن هنا لا يعتد بما جاء فى كتب « الآداب العربية فى القرن التاسع عشر » و « تاريخ الصحافة العربية » و « فى الأدب الحديث » فإنها تنقل الخطأ عن بعضها بعضاً .

ويلوم المرحوم العالم المحقق الأستاذ عبد المتعال الصعيدى ، الشيخ حسن العطار على إهماله لإصلاح الأزهر واكتفائه (بذلك الصوت الخافت الذى أرسله فى مواضع يصعب العثور عليها من حاشيته على شرح جمع الجوامع ، بل كان

(١) عصر محمد على ج ٣ ص ٦٠٨ .

(٢) ذكر الأب شيخو أن اسمه محمد العروسى ، والصواب أحمد — ص ٥٢ .

يجب عليه أن يجهر بذلك الصوت بين جنبات الأزهر لينبه أهله من غفلتهم ،
ويوقظهم من رقدهم^(١) كما يتهمه بأنه كان ضعيف الروح (فلو رزق الروح
القوية لأدخل الإصلاح في الأزهر بالقوة ، كما أدخل محمد علي الإصلاح في
مصر بالقوة)^(٢) ونسى الأستاذ الصعيدى أن محمد علي لم يكن في نيته إصلاح
الأزهر لأسباب ليس هنا مجال مناقشتها في مقام ضيق . . .

٥ - بين العطار والشاعر بطرس كرامة

تصادفنا في الجزء الرابع من « الخطط التوفيقية » عبارة نقلها المؤرخ على
مبارك عن الشيخ حسن العطار يقول فيها المترجم له بعارته : (قدم علينا بمصر
عام سبعة وثلاثين بعد المائتين والألف ، كبير رجال الدروز لقيام أهل الجبال
عليه ، ملتجئاً بوزيرها محمد علي ، وقدم بصحبته بطرس النصراني ، فاجتمع
بالفقير - يعنى العطار نفسه - مراراً ، ورأيت منه أدباً جمّاً ، ومحاضرة ومعرفة
بالتواريخ والأيام والأنساب والنحو وغير ذلك ، وكان يكتب الخط الحسن ،
وامتلحنى بقصيدة منها :

أما الذكاء فإنه أذكى وأبرع من إيامه
أضحى البديع رقيقه لما تفرد في جناسه
في أي فن شفته فكأنه بانى أسامه

فن هو كبير الدروز هذا الذى ثار عليه أهل الجبال والتجأ إلى مصر محتجاً
بمحمد علي ؟ ومن هو بطرس النصراني هذا الذى جاء بصحبته ؟ والذى كان جم
الأدب : حسن المحاضرة ، عارفاً بالتاريخ والأيام والأنساب والنحو ، والذى
كان حسن الخط ، حاضر الشعر إلى حد أنه مدح الشيخ حسن العطار بقصيدة

(٢٠١) تاريخ الإصلاح في الأزهر ج ١ ص ٢٢ ، ٢٤ للشيخ عبد المحال الصعيدى .

روى لنا المترجم ثلاثة من أبياتها ؟

الحق أن هذا الخبر قد يقبله القارئ العادى بدون أن يلفت نظره فيه شيء ، ولكن القارئ المتعمق المتفطن للأحداث وتواريخ الرجال يقف عنده وقفات طويلة . . . فكبير الدروز هذا لم يكن — كما روى ، وهما ، على مبارك عن العطار — رجلا من الدروز ولا كبيرهم ! وإنما هو الأمير بشير الشهابى ، الذى كان مسيحياً — ولم يكن درزياً فأعلن إسلامه . أما الشيخ بشير جنبلاط فكان كبير الدروز . وليس هو من بيت الأمراء الشهابيين . ولكن اسم « بشير » اختلط على الراوى والناقل . فبشير الشهابى المسيحى الذى اعتنق الإسلام والذى جاء إلى مصر وفى صحبته « بطرس النصرانى » هو غير الشيخ بشير جنبلاط كبير الدروز ، وهو لم يحن إلى مصر : ولم يكن له شأن مع محمد على . والحق أن أهل الجبال — يعنى جبال لبنان — قد ثاروا على الأمير بشير الشهابى لأسباب سياسية لا محل للذكرها هنا ، وكانت أسرة جنبلاط الدرزية تؤيد الأمير بشير الشهابى وتناصره^(١) ليحفظوا بهذا نفوذهم وسطوتهم أمام الأسر الدرزية الأخرى ، ومن هنا جاءت العداوة بين الأمير بشير وبين الدروز . ولم يخضع بعض أهل لبنان لسلطان الأمير بشير الشهابى وأبوا أن يدفعوا له المال المفروض عليهم ، فقامت بينه وبينهم حروب ودسائس انتهت بمجيئه إلى مصر سنة ١٨٢١ ملتجئاً إلى محمد على ، ومتفهماً معه على بعض الأوضاع فى الشام ، وفى صحبته شاعره الأديب اللبناني الكبير بطرس كرامة صاحب ديوان « سجع الحمامة » وأقرب المقربين إلى الأمير بشير . هذا هو « كبير الدروز » الذى أشار إليه حسن العطار فى كلامه عن نفسه ، وهذا هو « بطرس النصرانى » الذى كان فى صحبته . . .

وقد روى الكونت طرازى ، والأب لويس شيخو البيتين اللذين قاطما الشاعر اللبناني بطرس كرامة فى مدح الشيخ حسن العطار حين قابله بمصر لأول مرة ، وهما :

(١) تراجم مشاهير الشرق : نزيهان ج ١ ص ٦٤ - ٦٨ .

قد كنت أسمع عنكم كل نادرة حتى رأيتك ياممولى وياأربى^(١)
والله ما سمعت أذى بما نظرت لديك عيناى من فضل ومن أدب
على أن الأبيات الثلاثة التى رواها حسن العطار نفسه هى من قصيدة طويلة
للشاعر بطرس كرامة فى مدحه مطلعها :

واقى يطوف بشمس كاسه قمر تلثم فى نواسه^(٢)
طاب الصبح فخذ على ورد بوجنته وآسه ...
وتبلغ أبياتها تسعة وعشرين بيتاً .

والحق أن الشاعر كرامة لم يمدح حسن العطار وحده فى مصر ، بل مدح
العالم الكبير الشيخ المهدى ، ولكنه خلط فى مدحه بين العلماء والقيان ، فمدح
بمصر مغنية فى عصر محمد على كانت تدعى « أم رضوان » ، فقال وأبدع :
رعى الله مصرأ إن مصرأ لجنة يزول بها من صاحب الهم همه
ففىجنة الفردوس رضوان وحده وفى مصر رضوان كذاك وأمه !
والحق أن « كرامة » أعجب بمصر كلها ما بين علمائها وقياها ، ورجالها
ونسائها ، فقال يمدحها بقصيدة مطلعها :

تجلت لدينا فى محاسنها مصر فراق لنا وجه المسرة والبشر
ولقد اختلط الأمر على مؤلف كتاب « مصر فى القرن الثامن عشر » فذكر
أن الذى قدم إلى مصر فى أيام محمد على وتعرف إليه حسن العطار (هو رجل
من الدروز اسمه بطرس)^(٣) . ولن نضيف هنا تصحيحاً جديداً ، فبطرس

(١) تاريخ الصحافة العربية ج ١ ص ١٣٠ . و « تاريخ الآداب العربية » لشيخى ص ٥٢ .
وديوان كرامة ص ٢٩١ .

(٢) ديوان مجمع الحماة ص ٣٠٠ .

(٣) صفحة ٥٠ من الجزء الأول من كتاب « مصر فى القرن الثامن عشر » للأستاذ المؤرخ
محمد الشرقاوى . وهو كتاب نفيس فى موضوعه .

كرامة لبناني مسيحي كان شاعر الأمير بشير الشهابي ، وما كان درزيًا في يوم من أيام حياته .

٦ - التحرير في الوقائع المصرية

في بضعة من كتب تاريخ الأدب والنقد والتراجم التي ترجمت للشيخ حسن العطار نجد أنها تكاد تجمع على أن هذا الموجه الأول لحركة الأخذ بالعلوم الحديثة قد اشتغل بالتحرير في صحيفة الوقائع المصرية التي أنشأها محمد علي سنة ١٨٢٨ هـ وجعلها لسان حال الحكومة ، وإحدى الرسمية للدولة . فزى الأب لويس شيخو يذكر أنه (لما أنشأ الشيخ حسن العطار أول جريدة طبعت في الشرق وهي الوقائع المصرية سنة ١٨٢٨ اتخذ كساعده في إنشائها شهاب الدين المذكور - يعنى الشاعر شهاب الدين ^(١)) . ونرى مؤلف تاريخ الصحافة العربية يذكر في الفصل الذى كتبه عن الوقائع المصرية أنه قد تولى تحريرها بعد وفاة الطهطاوى كثير من أرباب الشهرة الواسعة في العلم ، من أمثال فارس الشدياق ، وحسن العطار ^(٢) . وعن هذين المصدرين نقل المؤرخ جرجى زيدان ^(٣) . وظل الخبر ينقل من مصدر إلى مصدر حتى رواه الأستاذة أحمد الإسكندري وأحمد أمين وزملاؤهما في كتاب « المفصل » على الصورة الآتية : (وعاد حسن العطار إلى مصر فتولى تحرير الوقائع المصرية) ^(٤) . وكرر هؤلاء الأستاذة هذا الخبر في كتاب « المنتخب من أدب العرب » الذى كلفوا جمعه وشرحه من قبل وزارة التربية والتعليم . وفي معجم « المنجد » للأب لويس معلوف اليسوى أن العطار هو محرر جريدة الوقائع المصرية لأمر محمد علي . ويذكر صاحب كتاب « في الأدب الحديث ^(٥) » أن العطار عهد إليه بتحرير الوقائع المصرية بعد أوبته

(١) الآداب العربية ج ١ ص ٨٤ .

(٢) تاريخ الصحافة العربية لطرازي ج ١ - ص ٤٩ - ٥٠ .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية - ج ٤ ص ٥٢ .

(٤) المفصل ص ٣٣٥ . (٥) هو الأستاذ عمر الدسوقي .

إلى مصر^(١) . ويردد الأستاذ محمود الشرقاوى هذه الرواية قائلاً "إن محمد على اختار الشيخ حسن العطار محرراً للوقائع المصرية أول صدورها^(٢) .

ونجد من أصحاب الموسوعات في تراجم الرجال أن الأستاذ خير الدين الزركلى^(٣) يتفق مع الأب لويس شيخو في أن حسن العطار تولى إنشاء جريدة الوقائع المصرية في بدء صدورها : فهما لا يكتفیان بأن ينسبا إليه القيام بتحرير الوقائع بل ينسبا إليه القيام بإنشائها . . . على حين أن الأستاذ عمر رضا كحالة - مؤلف موسوعة معجم المؤلفين - لا يتعرض لحكاية الوقائع المصرية بنفى أو تأكيد بل يسقطها من حساب السيرة . . .

أما الأستاذ سامى بدرأوى فله دراسة جيدة عن الشيخ حسن العطار في مجلة « المجلة » : وفيها يكرر حكاية تحرير العطار للوقائع المصرية في ثلاثة مواضع من مقاله : ويزيد أن سر اختياره أول محرر للوقائع المصرية يكمن وراء جمال أسلوبه^(٤) . ويتقدم كاتب هذا المقال خطوة في الإثبات فيشير إلى بعض الإشارة الدالة على موقف العطار السياسى في عهد محمد على قائلاً : (أما الإشارة الثانية إلى موقف العطار السياسى في عهد محمد على فتجدها في الوقائع ، في الفترة التى ولى فيها العطار تحرير القسم العربى منها ١٨٢٨ - ١٨٣٠ م . وخلاصة هذه الإشارة أن أحد محررى الوقائع واسمه عزيز أفندى كان يحرص على أن يعرض الأخبار التى ترد إليه من محمد على عرضاً موجهاً : أى أنه كان يعاقب عليها برأيه الشخصى ، ولم يرض ذلك محمداً علياً ، فلقت نظر عزيز أفندى مرة ومرة . وفي الثالثة نحاه نهائياً عن الوقائع . وبعد ذلك بقليل نجده رئيس التحرير نفسه يعتذر عن كتابته بعض أشياء لم يكن مطلعاً عليها فوقع بها الخطأ ، وأن سعادته - يعنى محمد على - أمر بأنه لا يكتب شئ إلا بعد الاطلاع على حقيقته ليكون

(١) في الأدب الحديث : لعمر الدسوقي ص ٤٦ .

(٢) مصر في القرن الثامن عشر - ج ١ ص ٥٠ .

(٣) انظر معجمه الكبير (الاعلام) ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٤) مجلة المجلة عدد مارس سنة ١٩٦٥ ص ٣١ - ٣٢ - ٣٥ .

خالياً من السهو والخطأ . ويشكر المحرر محمداً علياً لتجاوزه عن هذا الأمر ، بل واختياره المحرر عضواً في المجلس العالى من غير استحقاق (١) .

هذه قصة اشتراك الشيخ حسن العطار في تحرير الوقائع المصرية وفي إنشائها ، ولكننا نجد مؤرخاً حديثاً للصحافة ، بل مؤرخاً للوقائع المصرية نفسها ينكر مشاركة العطار في تحريرها ، ويقول بنص عبارته : (وعندى من الأسباب ما يجعلنى أستبعد إلقاء أمر التحرير العربى فى جريدة الوقائع إلى الشيخ حسن العطار . فقد أنكرته الوثائق الرسمية إنكاراً تاماً ، بينما حرصت على ذكر تفاصيل إدارة الوقائع وتحريرها . وهى تفاصيل دون قدر الرجل ومكانته كمحرر اللغة العربية فى الصحيفة الرسمية ، وكان أحق بالذكر منها ، والشيخ حسن العطار شاعر نائر لا ينافسه فى ميدان الإنشاء والتحرير منافس . . . وما أثر عن أسلوب العطار لا يتفق مطلقاً مع تحرير الوقائع التى هوى أسلوبها وكاد يصل فى معظم أعدادها إلى اللغة الدارجة) (٢) .

ولابد فى ختام هذا الفصل من أن نصصح وهماً كبيراً وقع فى كتاب « أدب المقالة الصحفية فى مصر » وفى الجزء الأول منه . فقد ذكر مؤلفه الفاضل أنه كان يشرف على تحرير القسم العربى بالوقائع رجلان هما : السيد جمال الدين الأفغانى ، ومحمد بن إسماعيل ، والشيخ عبد الرحمن الصفى ١١ وواضح أن الكلام اضطراباً ساقه هذا المساق ، الذى لا يعز كشفه على فطنة المؤلف^١ وعلمه . كما لا يعز تصويبه على القارئ الكريم الذى يعرف أين مكان السيد جمال الدين الأفغانى من عصر محمد على ؟ ؟

٧ - بين العطار والخبرتى المؤرخ

شاعت الأقدار أن يلتقى ثلاثة من أعلام مصر فى عهد الحملة الفرنسية وفى عهد محمد على على صداقة متينة لم تنل منها الأيام ، على الرغم من اختلاف

(١) مجلة المحلة - عدد مارس سنة ٦٥ ص ٣٥ .

(٢) تاريخ الوقائع المصرية : ص ٦٧ - ٦٨ نشر مكتبة الآداب بالقاهرة .

مشاربهم في الحياة . وهؤلاء الثلاثة هم الشاعر إسماعيل الخشاب ، والعالم حسن الطار ، والمؤرخ عبد الرحمن الجبرتي . وسنلتقي في فصل مسبل مع هذا الثاوث في مطارحه وفي مطارحاته . . . ولكننا هنا في هذا الفصل سنتحدث عن وجهتي حسن الطار والجبرتي ورأيهما في الحكم وفي الدولة الجديدة التي عهدت إليها الأقدار أن تتولى زمام مصر في أول القرن التاسع عشر ، وهي الدولة التي أقامها محمد علي . وبلغت النظر عند نظرتنا إلى هذين الصديقين المفكرين اختلاف منهجهما في الحياة وخاصة عند قيام حكم محمد علي . فالجبرتي المؤرخ كان مقدراً للداء محمد علي ونشاطه ودهائه ومضائه في كل أمره ، وشهامته وتدييره ، ولكنه كان ينقم عليه أموراً منها ظالمه وظلم ولده إبراهيم واستبداده بالأمر ، وطفان شخصه على الشخصية المصرية .

والجبرتي — في تاريخه العظيم — يقف للدولة العلوية الجديدة بالمرصاد ، يسجل أخطاها ، ويرصد عيوبها . فلا يخشى مثلاً أن يقول في كتابه عن محمد علي إنه « يمتاز بالدواء ، والحيلة ، والمداينة » ، بل وصفه مؤرخنا فوق هذا بخلفه الأيمان الكاذبة للنتيب السيد عمر مكرم (على سيرة بالعدل وإقامة الأحكام والشرائع ، والإقلاع عن المظالم . . . فيتورط المخاطب بذلك القول ، ويظن صحته !) والجبرتي المؤرخ كان يرى دولة محمد علي دولة ظالمة ، ويسمى رجالها وأنصارها بالظالمين . . . وكان يرى أن الدين أعانوها على قيامها مشاركون لها في الظلم . . . وذلك كان رأيه في عمر مكرم حين نقاه محمد علي ، (فإن الذي وقع له بعض ما يستحقه ، ومن أعان ظالماً سلط عليه ، ولا يظلم ربك أحدا . . .) والجبرتي يصف ما فعله إبراهيم بن محمد علي بأهل الصعيد من تعذيب قائلين : (. . . فإنه فعل بهم فعل التتار ، عندما جالوا بالأقطار ، وأذل أعزة أهلها . . .) وليس ذلك ببعيد على شاب جاهل ، سنه دون العشرين عاماً ، وحضر من بلدته ولم يترغب ما هو فيه . . . لم يؤدبه مؤدب ، ولا يعرف شريعة ولا مأمورات ، ولا منهيات . . .) (١) . . .

ولقد فر العطار من القاهرة حين جاء الفرنسيون إلى مصر ، كما فر الجبرتي المؤرخ إلى مزرعته في بلدة أيار ، وعاد العطار من مقره بالصعيد كما عاد الجبرتي . . . ولكن العطار اتصل بعلماء الحملة اتصالاً قريباً ، على حين كان الجبرتي يباعده نفسه منهم .

وعلى حين نرى هذا النقد اللاذع ، وهذا الغضب المصوب على محمد على ورجاله من الجبرتي المؤرخ ، نرى الشيخ حسن العطار يمدح محمد على ويغلي في مدحه في مفتتح كتابه (إنشاء عطار) واصفاً إياه بأنه (مدبر الممالك ، مؤمن المسالك ، منور الحواك : زينة الأميرة والأرائك ، قانع البغاة ، مبيد الطغاة . . .) إلى آخر هذه التراتيل المعروفة التي لا يحذفها إلا مصانع كاسب لمودات الرجال . . . بل نراه يتجه بالشعر إلى مدح إبراهيم « باشا » عند عودته ظافراً من حروب الشام قائلاً في مطلع القصيدة :

سمهري ينشئ أم غصن بان ؟ أم قوام دونه صبري بان ؟
صان بالعمال معسول اللئمي وتهادي ، هادماً ما أنا بان...
والقصيدة طويلة فارجع إليها في الجزء الرابع من خطط على مبارك .

ولقد عرف العطار طريق الوصول إلى محمد علي : فقد كان له — كما يروي صاحب الخطط — (اتصال خاص بسامي باشا وأخويه باقي بك وخير الله بك ، وله عليهم مشيخة : وبواسطتهم كان يجتمع على المرحوم محمد علي باشا فيجله ويعظمه ويعرف فضله) . أما الجبرتي فقد كان يتحاشى أبواب أصحاب السلطان ، وخاصة بعد أن أصيب بمصرع ولده خليل نتيجة لغضب سليمان آغا السلحدار أحد الدهاة في بلاط محمد علي .

وقد يقال — كما قاله الأستاذ خليل شيبوب — إن ائتلاف الأمزجة ، واتفاق الطباع هو السبب في توثيق أواصر المحبة بين العطار والجبرتي ، ولكن الذي لا شك فيه أن اختلاف نظريهما إلى معنى الحكم ، وأخلاقية الحاكم قد أدى بهما إلى مذهبين مختلفين ، ووجهتين متباينتين : وإن كانا قد ظللا عمريهما على حب وصفاء : في حالتي السراء والضراء . . .

٨ - الحكم الذي ترضى حكومته

يلفت النظر في حوادث سنة ١٢٣٦ هـ - سنة ١٨٢٠ م التي ذكرها الجبرتي في الجزء الرابع من تاريخه، هذا الحادث الذي ندعه مرويّاً بعبارة صاحبه حيث يقول : (وفيه من الحوادث أن الشيخ إبراهيم الشبير بباشا المالكي بالإسكندرية قرر في درس الفقه أن ذبيحة أهل الكتاب في حكم الميتة لا يجوز أكلها. وما ورد من إطلاق الآية فلأنه قبل أن يغيروا ويبدلوا في كتبهم . فلما سمع فقهاء الثغر ذلك أنكروه واستغريوه . ثم تكلموا مع الشيخ إبراهيم المذكور وعارضوه . فقال : أنا لم أذكر ذلك بفهمي وعلمي ، وإنما تلقيت ذلك عن الشيخ على الميلي المغربي ، وهو رجل عالم متورع موثق بعلمه . ثم إنه أرسل إلى شيخه المذكور بمصر يعلمه بالواقع . فألف رسالة في خصوص ذلك وأطنب فيها ، فذكر أقوال المشايخ والخلافات في المذاهب . واعتمد قول الإمام الطرشي في المنع وعدم الحل . وحشا الرسالة بالخط على علماء الوقت وحكامه ، وهي نحو الثلاثة عشر كراسة (كذا) ، وأرسلها إلى الشيخ إبراهيم ، فقرأها على أهل الثغر ، فكثّر اللفظ والإنكار ، خصوصاً وأهل الوقت أكثرهم مخالفون للملة . وانتهى الأمر إلى الباشا ، فكتب مرسوماً إلى كتبخدا بياك بمصر ، وتقديم إليه بأن يجمع مشايخ الوقت لتحقيق المسألة ، وأرسل إليه بالرسالة أيضاً المصنفة . فأحضر كتبخدا بياك المشايخ ، وعرض عليهم الأمر ، فلطف الشيخ محمد العزويّ العبارة ، وقال : الشيخ على الميلي رجل من العلماء تلقى عن مشايخنا ومشايخهم ، لا ينكر علمه وفضله ، وهو متعزل عن خلطة الناس . إلا أنه حاد المزاج ، ويعقله بعض خلل ، والأولى أن نجتمع به ونتذاكر في غير مجلسكم ، ونهني بعد ذلك الأمر إليكم . فاجتمعوا في ثاني يوم ، وأرسلوا إلى الشيخ على بدعونه للمناظرة ، فأبى عن الحضور ، وأرسل الجواب مع شخصين من مجاوري المغاربة يقولان إنه لا يحضر مع الغوغاء ، بل يكون في مجلس خاص يتناظر فيه مع الشيخ

محمد بن الأمير . بحضرة الشيخ حسن القويسنى ، والشيخ حسن العطار فقط ، لأن ابن الأمير يناقشه ويشن عليه الغارة ! فلما قال ذلك القول تغير ابن الأمير وأرعد وأبرق ، وتشاتم بعض من بالجلس مع الرسل ، وعند ذلك أمروا بحبسهما فى بيت الأغا ، وأمروا الأغا بالذهاب إلى بيت الشيخ على وإحضاره بالجلس ولو قهراً عنه . فركب الأغا وذهب إلى بيت المذكور ، فوجده قد تغيب ، فأخرج زوجته ومن معها من البيت ، وسمر البيت ! فذهبت إلى بيت بعض الجيران ! ثم كتبوا عرضاً محضراً وذكروا فيه بأن الشيخ على على خلاف الحق ، وأبى عن حضور مجلس العلماء والمناظرة معهم فى تحقيق المسألة ، وهرب واختفى لكونه على خلاف الحق ! ولو كان على الحق ما اختفى ولا هرب . والرأى لحضرة الباشا فيه إذا ظهر ، كذلك فى الشيخ إبراهيم باشا السكندرى . وتمموا العرض وأمضوه بالختوم الكثيرة ، وأرسلوه إلى الباشا . وبعد أيام أطلقوا الشخصين من حبس الأغا ، ورفعوا الختم عن بيت الشيخ على ، ورجع أهله إليه . وحضر الباشا - - - يعنى محمد على - - إلى مصر فى أوائل الشهر ، ورسم بنى الشيخ إبراهيم باشا إلى بنى غازى . ولم يظهر الشيخ على من اختفائه . . .)

هذا الخبر الذى رواه الجبرى يحمل دلالات كثيرة ، وقد يستنبط القارئ منه أشياء متنوعة تتصل بحرية الرأى ، ولغظ العوام ، وخصومات العلماء ، وسطوة الحكام ، ورعاية الاعتبار ، وتلطيف الفن . . . ولكن الذى يهمنا منه هو رضا الشيخ على الميلى المتهم بأن يكون الشيخ حسن العطار أحد الحكامين فى هذه المسألة ، وثانى القاضيين فى مجلس المناظرة ، وأولهما الشيخ حسن القويسنى . فاختيار العالم المتهم لذين الحكامين هو دليل على اطمئنانه إليهما ووثوقه من مناصرتهما للحق ، وعدم ميلهما إلى الهوى . وتلك شهادة من عالم محقق لعالمين يراهما - وهو فى موضع الاتهام - أهلاً للثقة ، وموضعاً للعدالة . وقد اختارهما صاحبنا لينخفا من حدة الشيخ الأمير فى المناقشة ، فكأنهما ضمام الأمن الذى به يستطيع أن يناقش خصمه فى هدوء ، ويجادله فى اطمئنانه . وقد حدثت هذه الحادثة والشيخان حسن العطار وحسن القويسنى ليسا إلا مجرد عالمين من علماء

الأزهر ، ولم يكن واحد منهما قد وصل إلى مشيخة الأزهر بعد . وفي هذا دلالة على المكانة العلمية وعلى الحيدة التي كان يتمتع بها هذان العالمان .

وليس في هذا الاختيار من العالم المهتم دلالة على رأى العطار والقويسى فى الحكم على ذبيحة أهل الكتاب ، وهل هى جائزة أكلها أم لا يجوز ؟ فقد يكون رأيهما مخالفاً لرأيه ، ولكنه دلنا على أن حسن العطار وحسن القويسى أهل لأن يظنأن إليهما ، ويوثق بهما . وتلك شهادة تدلنا على مكانة الشيخ حسن العطار فى عصره ، ومنزلته من مخالفيه وموافقيه على السواء . . .

٩ - قارئ الكتب الواعى

لم يصل حسن العطار إلى تلك الحصيلة الواسعة من المعارف البشرية فى عصره إلا بما حصله من قراءة الكتب . فإن شيوخه وأساتذته فى الأزهر لم يعطوه من المعارف وثراء الفكر قدر ما أعطته الكتب الكثيرة التى قرأها وعلق عليها ، وأعاد قراءتها . فقد كان صاحبنا قارئاً ممتازاً ، وكان للكتب عنده محل عظيم من نفسه . وما عرف عنه أنه يضمن على كتاب يقتنيه بمال مهما ارتفع سعره ، على الرغم من عدم تكاثر الأموال بين يديه . وتدلنا أخباره المنبثة هنا وهناك فى تضاعيف مصنفاته على مبلغ عنايته بالكتب التى يسمع بها . وشدة رغبته فى الحصول عليها . ففى الجزء الثانى من كتابه « جمع الجوامع » يسوقه الحديث إلى كتاب « ترشيح التوشيح » ، فيقول عنه : (وهذا الكتاب من أجل كتب المصنف ، وقعت إلى نسخته وأنا بمدينة دمشق الشام ، ومقدمة ذلك الكتاب بخطه ، فاشتريتها . .) (١)

وما كان العطار ليسافر دون أن يستصحب الأسفار والكتب فى أسفاره ورحلاته . ويذكر لنا فى مقدمة حاشيته على شرح الأزهري للشيخ خالد أنه لما خرج فاراً من مصر إلى البلاد الرومية ، كما سبق الحديث عن ذلك فى صفحة ٢١

(١) جمع الجوامع : حسن العطار ج ٢ ص ٣٠١ .

استصحب مسودة هذا الكتاب وغيرها من بعض كتبه . ولم يكن العطار يكتفى بقراءة الكتب التي تقع في يده ، بل كثيراً ما كان يطرز هوامشها بتعليقاته وكتابات . ويؤيد هذه الحقيقة ما ذكره عنه الشاعر الشيخ محمد شهاب الدين ، ونقله عنه على مبارك من أن الشيخ حسن العطار (كان آية في حدة النظر وشدة الدكاء . ولقد كان يزورنا في بعض الأحيان ، فيتناول الكتاب الدقيق الخط الذي تعسر قراءته في وضوح النهار ، فيقرأ فيه على نور السراج وهو في موضعه . وربما استعار مني الكتاب في مجلدين : فلا يلبث عنده إلا الأسبوع أو الأسبوعين ، ويعيده إليّ ، وقد استوفى قراءته ، وكتب في طوره على كثير من مواضعه ^(١) . فهو لا يبالي أن يعلق على هوامش الكتاب وطوره حتى ولو كان مستعاراً وليس في ملك يده . ويقرر لنا هذا الخبر سرعة حسن العطار في القراءة مع الاستيعاب والفهم . فالكتاب الضخم في مجلدين لا يأخذ منه أكثر من أسبوعين لقراءته واستيفاء موضوعاته والتعليق على هوامشه .

وتدلنا الرسالة التي بعث بها حسن العطار إلى الشيخ مصطفى بكري الساعاتي ^(٢) من أدباء وقته على مبلغ اتساع دائرة قراءة الرجل وكثرة محفوظه من كتب الأدب والتاريخ والأخبار والمحاضرات وما إليها ، ففيها إشارات إلى أخبار أدبية طريفة تدل على أن الرجل كان مطلعاً على كثير من كتب الأدب والتاريخ والشعر .

ولم يكتف العطار بالكتب العربية ، بل اتجه إلى الكتب التي ترجمت في أوائل عصر النهضة في القرن التاسع عشر ، فقرأها ، وأفاد منها ، وجمع بها بين ثقافة الشرق وثقافة الغرب . ويشهد له تلميذه الشيخ رفاعه الطهطاوي بهذا فيقول عنه : (وكان يطلع دائماً على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها) ^(٣) . بل يتحدث العطار نفسه عن قراءاته واطلاعاته على الكتب فيقول : (وقع في زمننا

(١) الخطط التوثيقية - ج ٤ ، ومعجم المطبوعات العربية لسركيس ص ١٣٣٦ .

(٢) مجلة روضة المدارس عدد ١٨ سنة ١٢٨٧ هـ ص ٢٥ ، و عدد ١٩ ص ٢٤ .

(٣) مباحج الألباب المصرية لرفاعة الطهطاوي .

أن جلبت كتب من بلاد الإفرنج ، وترجمت باللغة التركية والعربية ، وفيها أعمال كثيرة ، وأفعال دقيقة ، اطلعنا على بعضها . وقد تتحول تلك الأعمال بواسطة الأصول الهندسية والعلوم الطبيعية من القوة إلى الفعل^(١) .

ويفسر لنا نهم العطار بالقراءة وتحصيل المعارف كلفه بالمعرفة وجبه الأصيل للعلم . ويؤكد لنا الأستاذ ساي بدرأوى (أن مفتاح شخصية العطار يكمن في هذا الحب للعلم) . كما يقرر (أن كلفه بالمعرفة والتعلم هو الذي جعله فذاً بين أقرانه تلميذاً وأستاذاً ، وهو الذي صاحبه في كافة مراحل حياته ، وجعله حدثاً في عصره^(٢)) . والحق أن الشيخ حسن العطار كان حدثاً في عصره ، وكان ظاهرة قليلة النظر ، بل نادرة المثل .

١٠ - ثنائى مرح ... وثلاثى متلازم ...

تصادفنا في سيرة الشيخ حسن العطار شخصيتان كبيرتان ربطت الود بينهما وبينه بأوثق رباط ، وهما شخصية عبد الرحمن الجبرقى المؤرخ ، وإسماعيل الخشاب الشاعر الخفيف الروح . ويروى لنا الجبرقى في حوادث سنة ١٢٣٠هـ - سنة ١٨١٥ م نبأ وفاة الشاعر الخشاب ، ويحدثنا عن هذه الصلة قائلاً : (وبعد أن رجع صاحبنا العلامة الشيخ حسن العطار من سياحته ، مازج المذكور - يعنى الشاعر الخشاب - وخالطه . ورافقه وواقفه ولازمه ، فكانا كثيراً ما يبيتان معاً ، ويقطعان الليل بأحاديث أرق من نسيم السحر ، وألطف من اتساق نظم الدرر . وكثيراً ما كانا يتنادمان بدارى ، لما بينى وبينهما من الصحبة الأكيدة ، والمودة العتيدة ، فكانا يرتاحان عندي ، ويطرحان التكاليف التى هى على النفس شديدة : ويتمثلان بقول من قال :

() جمع الجوامع لحسن العطار جزء ٢ ص ٦٤١ .

(٢) مجلة المهلة عدد مارس سنة ١٩٦٥ . ص ٣٢ .

فِي انقباض ووحشة فلماذا رأيت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيتهما وقلت ما قلت غير محتشم

ثم يتجاذبان أطراف الكلام ، فيجولان في كل من فن من الفنون الأدبية ،
والتواريخ والمحاضرات ، فتارة يتشاكيان تغير الزمان ، وتكدر الإخوان ، وأخري
يتزئمان بمحاسن الغزلان ، وما وقع لهما من صد وهجران ، ووصل وإحسان !
فكانت تجري بينهما مناديات أرق من زهر الرياض ، وأفتك بالعقول من الخلد
المراض ، وهما حينئذ فريدا وقهما ، ووحيدا مصرهما ، لم يعززا في ذلك الوقت
بثالث ، إذ ليس ثم من يدانيهما فضلا عن مساواتهما في تلك الشئون التي أربت
على الثاني والثالث ! (١)

ولا نجد كلاماً أصدق في وصف مصيبة هذا الثالوث من كلام الجبرتي المؤرخ
ولا أدق منه وألطف ! والواقع أن الجبرتي يتواضع هنا حين يذكر عن العطار
والخشب الشاعر أنهما لم يعززا بثالث في زمانهما ، فقد كان الجبرتي نفسه ثالث
هذه الجماعة المتلاقية على الحب والوفاء والألفة والسمو والأدب . وتدلنا شهادة
مؤرخنا الجبرتي لحسن العطار على زوح هذا العالم الأديب الذي كان يدوب رقة
ولطفاً ، والذي كان يجاري الشاعر الخشب في غزلياته ومعايناته ، ومفاكهاته ،
بل في مجونياته ! وقد أسقط الثلاثة الكلفة بينهم في مجاسم الخاص هذا ، وفي
أسمارهم ومنادياتهم ومطارحاتهم .

والواقع أن الشاعر إسماعيل الخشب كان أكثر الثلاثة ظرفاً ، وأميلهم إلى
الدعابة في انطلاق كثير . . . وكان فيه براعة في اجتذاب قلوب مجالسيه
ومحدثيه ، حتى لقد كان أمراء مصر وبكواتها وتجارها وعلمائها يرتاحون لمناذمته ،
ويتنقلون على طيب مفاكهته ، وحسن مخاطبته ، ولطف عبارته . وكان فيه كذلك
قدرة عجيبة على استحضار المناسبة اللائقة بالمجلس ، وعلى مخاطبة الحضور
على قدر عقولهم ، فيجانبس الناس ويشا كلهم على قدر اختلاف أهوائهم . . .

ولقد بلغ من وفاء الشيخ حسن العطار لصديقه إسماعيل الخشاب الشاعر أنه هو الذى جمع شعره وأظهر ديوانه ، كما تشير إلى ذلك عبارة فى الصفحة الثانية من الديوان المطبوع بالجواثب^(١) ، وكما يذكر الجبترى فى ترجمته للخشاب . وكثيراً ما كان هؤلاء الثلاثة يتنادون إلى الرياض ، ويتداعون إلى المتنزهات استجلاً للأُنس ، وإطراحاً للهم . فترى الخشاب الشاعر يدعو الجبترى المؤرخ إلى متنزه ، قائلاً : —

يا سيدى يا مندى ويا عريق المحتد
ويا أخا منظره جلاء عين الأرمد
أدعوك تأنى مسرعاً ويا لذاك من يد ؟
نؤم قصرأً جامعاً كل المغانى الشرد
نصغى إلى مزهر من أضحى فريد البلد !

وكثيراً ما كانت تقوم المعارضات الشعرية بين أعضاء هذا الثلاث الغريرف . فحين نظم حسن العطار موشحته التى يقول فيها على طريقة الأندلسيين :

أما فؤادى فعنك ما انتقلا فلم تخيرت فى الهوى بدلاً ؟ فاعجب
يا معرضاً عن محبة الدنف ومفرماً بالجمال والصلف
ومن به زاد فى الهوى شغفى أما كفى يا ظلوم ما حصلاً ؟
حتى جعلت الصدود والملا مذهب !

فتش فؤادى فليس فيه سوى شخصك يا أيها المليح ثوى
قد ضل قلبى لسكنه ، وغوى وهكذا من يحب معتدلاً
لم يلق إلا تأسفاً وقلى مشرب ...

(١) ديوان الخشاب : طبع الجواثب ص ٢ من الديوان أو ٣٤٥ من المجموع الذى طبعه فارس الشدياق مشتملاً على دواوين أخرى لابن الوردي وغيره .

حين نظم العطار هذه الموشحة التي منها هذه الأبيات غارضه الشاعر الخشاب بموشحة مطلعها :

يهتز كالغصن ماس معتدلاً أطلع بدرأً عليه قد سدلاً غيب
ولا شك أن العطار كان له شعر كثير في الغزل ، كما كان له ديوان — كما يذكر الجبرتي^(١) . ولا نعلم الآن مصير هذا الديوان المخطوط وأين مكان وجوده ، ولكننا نعلم يقيناً أن حسن العطار ذكر في رسالته إلى الشيخ مصطفى بكري الساعاني أنه ضاع منه بدمشق كراس من ديوان شعره^(٢) . ولعله — على جلال قدره في العلم — تخرج من شعر غزله وشبابه فزعم أنه ضاع منه كراس في دمشق .

ولقد كان الجبرتي المؤرخ أكثر الثلاثة جدّاً ، ولكن العطار لم ير في مجالس الأدب والظرف والمنازمة من خرج ما دام الدين متبوعاً ، وعلم الشريعة مصوناً . أما الخشاب فكان أكثر الثلاثة ميلاً إلى الإسراف في المضاحكات والمطارحات واصطياد اللذات .

ولما مات الخشاب الشاعر لم يجد حسن العطار في الجبرتي من يسد مسده ، ويملاً فراغه ، فبقى — كما يقول مؤرخنا — فريداً عن يشاكله ويناشده ويتجارى معه ، فسكت عن الشعر والنثر الأدبي جملة ، وانقطع عن مجالس السمر والمنازمة ، وانصرف إلى تقرير العلوم الفقهية والنحو ، والتصنيف في مقررات الأزهر ما بين حواشٍ وشروح ومتون . . .

١١ - وصاف الأوبئة

لقد كانت مصر ، بل كان الشرق العربي كله ، في العصر الذي شهد مولد حسن العطار مباءة لكثير من الأوبئة ومنها الطاعون ، الذي لفت أنظار

(١) تاريخ الجبرتي : طبعة بولاق ج ٤ ص ٢٤١ .

(٢) روضة المعارف عدد ١٨ ص ٢٨ .

الرحالين الأجانب فتحدثوا عنه في رحلاتهم : والذي كان يحصد الأرواح حصداً . وكان وباء الطاعون يتكرر حدوثه كل بضع سنوات كما لاحظ ذلك الرحالة قولنى . ولقد شهد حسن العطار في حياته الطويلة بضعة من الطواعين : أولها الطاعون الذى حدث سنة ١٢٠٥ هـ - ١٧٩١ م . وأشار إليه الجبرتي في خلال ترجمته للشيخ محمد مرتضى الزبيدي صاحب « تاج العروس » ، وقد مات الزبيدي مطعوناً في ذلك الوباء . وثانيها الطاعون الذى حدث سنة ١٢٠٦ هـ - ١٧٩٢ سنة ١٧٩٢ وقد أشار إليه مؤرخنا في خلال ترجمته للشيخ محمد الصبان النحوى المشهور . أما ثالث الطواعين التى شاهدها العطار فهو الذى حدث في عهد الحملة الفرنسية سنة ١٨٠٠ ، وقد وقع بمصر والشام ، وكان أسوأ نتائجه وأشد فتكاته بالصعيد . وينقل لنا الجبرتي المؤرخ وصفاً لهذا الوباء من رسالة بعث بها حسن العطار إليه من الصعيد حينما كان فاراً من وجه الفرنسيين في القاهرة . ولم يكتف الجبرتي بنقل هذه الرسالة الوصفية في تاريخه المشهور ، بل نقلها كذلك في كتابه الآخر « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين » الذى ألفه بالمشاركة مع حسن العطار . وتصف لنا رسالة العطار هجوماً للبلاء ، وإغلاقاً للأسواق ، وندرة الأكفان ، وكثرة الموتان ، وعدم وجود المغسلين والمكفنين وحاملي نعوش . . . وانشغال الناس بتجهيز الموتى ، وتردد صبيحات النائحين والباكين ، وتعطل بيوت الله من الأذان والمؤذنين ، وجفاف الضروع ، وتعطل الزروع ، وهبوب حصيد النبات بفعل الرياح لفقدان الحاصدين . . . ولا بأس هنا أن نذكر هذه الرسالة المؤثرة حيث قال مخاطباً صديقه الجبرتي : (ونعرفكم يا سيدى^(١) أنه وقع في قطر الصعيد طاعون لم يعهد ولم نسمع بمثله ، وخصوصاً ما وقع منه بأسبوط . وقد انتشر هذا البلاء في جميع البلاد شرقاً وغرباً ، وشاهدنا منه العجائب في أطواره وأحواله . وذلك أنه أباد معظم أهل البلاد . وكان أكثره في الرجال ، سيما الشبان والعظماء وكل ذى منقبة وفضيلة ، وأغلقت الأسواق ، وعزت الأكفان ، وصار المعظم من الناس بين ميت ومشيع ومريض وعائد !

حتى إن الإنسان لا يلدئ بموت صاحبه أو قربه إلا بعد أيام . ويتعطل الميت في بيته من أجل تجهيزه ، فلا يوجد النعش ولا المغسل ، ولا من يحمل الميت إلا بعد المشقة الشديدة ، وأن أكبر كبير إذا مات لا يكاد يمشى معه — أى يسير في جنازته — ما زاد على عشرة أنفار تكثرى ! ومات العلماء والقراء والمثمنون والرؤساء وأرباب الحرف . ولقد مكثت شهراً بدون حلق رأسى لعدم الحلاق ! وكان مبدأ هذا الأمر من شعبان ، وأخذ في الزيادة في شهرى ذى القعدة والحجة ، حتى بلغ النهاية القصوى ، فكان يموت كل يوم من أسبوط خاصة زيادة على السائة . وصار الإنسان إذا خرج من بيته لا يرى إلا جنازة أو مريضاً أو مشتغلاً بتجهيز ميت ! ولا يسمع إلا نائحة أو باكية ! وتعطلت المساجد من الأذان والإمامة ، لموت أرباب الوظائف ، واشتغال من بقى منهم بالمشى أمام الجنائز والسبح والسر . وتعطل الزرع من الحصاد ، ونشف على وجه الأرض ، وأبادته الرياح لعدم وجدان من يحصده . وعلى التخمين أنه مات الثلثان من الناس ، هذا مع سعى العرب في البلاد بالفساد والتخويف ، بسبب خلو البلاد من الناس والحكام . . . إلى أن قال : ولو شئت أن أشرح لك يا سيدى ما حصل من أمر الطاعون لمأت الصحف . . .) ولقد لقي الفرنسيون من العنت في مكافحة هذا الوباء — وخاصة بالقاهرة حيث جموع جيشهم ورجال حملتهم — ما لم يغفله مؤرخو عهد الحملة ، وخاصة الشيخ عبد الرحمن الجبرى . كما كانوا يستعدون منذ خطوا رحالهم بمصر لمنع انتشار الأوبئة واتخلوا من وسائل الحيلة ما يذكركه مؤرخنا في حوادث سنة ١٢١٣ هـ . ولقد أصدروا الأوامر والمنشورات مراراً (بعدم مخالطة مع النساء المشهورات ، لأنهن الواسطة الأولى لتشويش الطاعون . . .)^(١) فلما بدأ ظهور الوباء سنة ١٨٠٠ (انزعج الفرنسيون من ذلك ، وجردوا مجالسهم من الفرش ، وكنسوها و غسلوها ، وشرعوا في عمل كرتيالات — أى حجر صمغى — ومحافظات . . .)^(٢) ثم زادوا في وسائل المكافحة

(١) تاريخ الجبرى — طبعة اللجنة بـ ٩ ص ٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٨ .

فأمروا بحرق الثياب التي على أجساد الموتى من الوباء ، وحصل بذلك للناس انزعاج عظيم . ومن غرائب الاتفاق أن مراد بك المملوك المصري في عهد الحملة قد مات بالوجه القبلى على أثر إصابته بالطاعون . على أن عين الوباء لم تغفل عن الفرنسيين المعتدين ، فقد روى الجعبرى أنه كان يموت كل يوم من الفرنسيين المقيمين بالقلعة الثلاثون والأربعون^(١) . ولم يدع مؤرخنا الفرصة تمر دون أن يصور لنا بقلمه الرشيق طريقة دفن الفرنسيين لموتاهم من الوباء^(٢) .

ولقد وصف لنا حسن الططار الطاعون الرابع الذى حدث فى مدة حياته سنة ١٨٢٣ م ، وذلك فى نهاية باب التصورات من حاشيته المشهورة على شرح الخبصى فى علم المنطق . وعهدنا بالطاعون أنه يستطرد بذكر حوادث فى خلال موضوعات كتبه ومسائل مصنفاة . وهنا نراه يشير إلى ثلاث حوادث هائلة حدثت بمصر فى سنة ١٨٢٣ ، وهى المطر الشديد الذى هدم مواضع كثيرة وعطل الناس عن قضاء مصالحهم ، والحريق الذى حدث بمخازن البارود فى القلعة ، وأهلك خلقاً كثيراً ، وحيوانات وأمتعة ، وارتجت منه البلاد رجتين نتيجة لانفجار البارود . والطاعون الذى وصفه قائلنا^(٣) : (ثم جاء الطاعون ومات من أهل العلم جماعة ، ومرض البعض ، والبعض فر إلى بلاده ، وصار من بقى ما بين عائد مريض ومشيع جنازة ومشغول بخدمة من مرضى عنده . والأفكار تكدرت ، والهموم تكاثرت ، والأوهام غلبت . وكان معنا فى ابتداء إقراء الكتاب — يعنى حاشيته فى المنطق — جماعة كثيرة من أذكىء الطلاب ، قلوا جداً ، وصارت أفكارهم لذلك الحادث غير قابلة للبحث فى غوامض المسائل المحتاجة لصفاء الفكر ، وعدم شغل البال ، وفكرى أنا أيضاً كذلك ، فمرض عيالى ، وخوفى على أحبائى ، وحزنى على من مات منهم ، وإشفاقى على المتمرضين . أسأل الله سبحانه اللطف لى ولهم وللمسلمين . . .) .

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٧ .

(٣) حاشية الططار على شرح الخبصى ص ١٣٨ .

ولإذا كان العطار في طاعون عهد الحملة قد وصف لنا الآثار المادية للوباء ، وصورها لنا في البيت والشارع والحقل ، والمقابر والجنازات والأسواق ، فإنه في طاعون سنة ١٨٢٣ قد صور لنا الحالة النفسية له ولطلائه . من أثر التمرض والتمريض والخوف والقلق والحزن على الموقى والإشفاق على المتمرضين . . .

ويعد حسن العطار بوصفه لطاعون سنة ١٨٢٣ م المؤرخ الوحيد له ، فلم تشر إليه تقارير العلماء والمؤرخين الأجانب المعاصرين لمحمد علي من أمثال البارون دي بوالكميت : وهود جسون ، ودوهاميل ، وبورنج^(١) . كما لم يشر إليه اللواء محمد مختار « باشا » صاحب « التوفيقات الإلهامية » في حوادث سنة ١٨٢٣ ، بل اكتفى بالإشارة « للحريقة المهولة بالقلمة بمصر » فقد كانت « لشدها وشهرتها تؤرخ بها العامة مواليدهم^(٢) » وفياتهم . . .

على أن العطار لم ينفرد وحده في الأدب العربي بوصف الطاعون والوباء ، فقد سبقه إلى ذلك الشاعر الأديب عمر بن الوردى الذى ولد بالمعرة وتوفى بحلب سنة ٧٤٩ هـ ، فله رسالة في وصف طاعون حدث في عهده أسماها « رسالة النبا » عن الوباء ، وقد حلاها بالخصنات البديعية المزدهجة على طريقته في الكتابة ، ولكنه أبدع في وصف الوباء وطريقة انتشاره ، وكثرة ضحاياه^(٣) .

ولإذا كان الله ينعم بالبلاء أحياناً ، فإن هذا القول ينطبق على طاعون عهد الحملة الفرنسية في مدينة عكا ، فقد كان حدوث الطاعون بها من الأسباب التى حملت بونايرت على ترك محاصرتها . فقد كان يموت كل يوم من رجال عسكره خمسون وستون عسكرياً . ولا نستنتج نحن ذلك ، ولكنها تأخذ من كلام بونايرت نفسه الذى بعث به من عكا إلى الفرنسيين المقيمين بمصر . . .

(١) بناء دولة : الدكتور محمد فؤاد شكرى وزيليه ص ٥٩١ .

(٢) التوفيقات الإلهامية ص ٦٢٠ .

(٣) ديوان عمر بن الوردى - طبع الجواثب - ص ١٨٤ .

١٢ - العطار بين مادحيه ورائيه

يظهر تقدير الناس للمرء وهو حى بين ظهرائهم بمدحهم له وثنائهم عليه . فإن ألسنة الخلق أقلام الحق كما يقولون . ويظهر تقديرهم له بعد وفاته برثائه والتفجع عليه والتعداد لمحاسنه ومآثره . ولئن نجد تقدير الرجال فى الأدب العربى إلا بين هذين . ولقد كان الشعراء فى عهد العطار قلة غير مجودة ، ولهذا لم نظفر عندهم بمدائح كثيرة له . وقد يكون مدحه جماعة من النظامين لم تصل إلينا قصائدهم لاعتبارات ، منها أن نظمهم لم يطبع ، وأن دواوينهم لم تنشر . ولقد أشرنا فى باب سابق من هذا الكتاب إلى الصلة بين العطار والشاعر بطرس كرامة اللبنانى ومدح هذا له ببعض الشعر الذى نشره فى ديوانه « سجع الحمامة » . على أن هناك من تلاميذ العطار نبيغ شاعر مشهور فى عصره هو محمد شهاب الدين الذى حاول أن يكون الشاعر الرسمى للدولة فى عهده ونجح فى هذا . وقد ظل هذا الشاعر الأديب وفيّاً لشيخه مدى حياته ، وعبر عن هذا الوفاء بمدحتين نشرتا فى ديوانه المطبوع سنة ١٢٧٧ هـ . ومدحة شهاب الدين الأولى للعطار ميمية القافية ، وقد جرى فيها على طريقته التقليدية فى الشعر ، وافتتحها بالغزل محاكاة للقماء : وتخلص من أبيات الغزل الطويل إلى صفة المملوح قائلا :

قلت يا إذا العذول دعني وجهلى	حسبك البر بحر فيض العلوم
مركز الفضل من غدا كل قطر	مستمدا من خطه المستقيم
شيخ كل الشيوخ مولى المولى	صفوة الأصفياء ، مزيل الهموم
« حسن » الذات والصفات جميعاً	مغضب المبغضين ، مرضى الخصوم
هو « عطارنا » الذى من شذاه	كان عطر الهدى ذكى الشميم !

ولاحظ هنا الصناعة اللفظية والحليات البديعية ومصطلحات العاوم والبديع فى قوله : البر ، والبحر ، والفيض . وقوله : مركز ، وقطر . وخط مستقيم وهى

مصطلحات الهندسة ، والمناسية بين عطار ، وشذا التي هي فوح العطور . . .
أما مدحة الشهاب الثانية للعطار فقد نظمها حين تعصب عليه بعض
الشيوخ لمسألة لم يذكرها لنا الشاعر الذي أطال في القصيدة ، وافتتحها أيضاً
بالغزل وخلص إلى مدح العطار قائلاً :

هو في سماء العلم بدر كامل ما إن يصاب تمامه بسرار
هو في المعارف صاحب الحال الذي يمتاز عند تنكر الأخبار
هو في الزمان السعد والعز الذي تعزز مصر به على الأمصار
ولاحظ هنا أيضاً مصطلحات النحو في قوله : المعارف ، وصاحب الحال ،
وتنكر ، وأخبار . . .

وهناك شاعر مصري مشهور في عصره اسمه على الدرويش ، وقد أدرك
العطار وملحه حينما كان شيخاً للجامع الأزهر بقصيدة رائية مثبتة في ديوانه (١) ،
وقد جرى الناظم المادح هنا على طريقة أهل عصره في الافتتاح بالغزل والتخلص
إلى المدح ، وملاً مدحته بالمحسنات البديعية والصنعة المتكلفة ، وخلص إلى مدح
مدوحه قائلاً :

ورأى الأفاحي عطر ثغرك فانشى متعجباً يثنى على «العطارة»
يزهو على الأعصار عجباً عصره وتثنيه مصر به على الأمصار

ولاحظ الشطر الأخير هنا فهو يكاد يكون بألفاظه الشطر الأخير من أبيات
الشاعر شهاب الدين . على أن العطار الذي أقل الشعراء المادحون في ملحه هو
العطار الذي أقل الشعراء الرثون في رثائه . حتى القصيدة الطويلة التي رثاه بها
تلميذه الشاعر شهاب الدين ضاعت من ناظمها ! فأثبت في ديوانه ستة أبيات
فقط مجهداً لها بالعارة التالية : (وكنت قد رثيت العلامة الشيخ العطار — قدس

(١) ديوان الأشعار بحمد الأشعار للشاعر على الدرويش ص ١٣٨ .

سرم- بقصيدة ضاعت مسودتها ، وليس في مخيلتي سوى أبيات قليلة مطلعها قولى :

سله أمنا فهو معطى الأمان رب أمر حال دون الأمانى
بينما الإنسان يرجو بعيداً إذ تدانى منه داعى التدانى
لم تنزل آمالنا فى ازدياد مع أن العمر فى نقصان
والمنايا حكها فى البرايا بالبلايا دائم الجريان
يا خليلي خلنى وشجوني إن ما بى من شجون كفانى !
كل شئ هالك جل ربى فتدبر من عليها فانى (١)

على أن العطار - رحمه الله - أسعد حظاً فى الرثاء من غيره من العلماء
الأعلام الذين ماتوا ولم يرثهم أحد . فقد ملئت قبله بقليل العلامة المشهور السيد
محمد مرتضى الزبيلى شارح القاموس المحيط (فلم يرثه أحد من الشعراء)
كما يروى لنا الجبerty فى تاريخه . . .

١٣ - العطار فى تقدير الرجال

لقد تناول كثير من مؤرخى الأدب وكتاب السير الشيخ حسن العطار
بالحديث عنه أو الترجمة له أو التعريف به . وجاء الحديث عنه إما أصلاً فى
صلب بحث أو مقال ، وإما عرضاً فى خلال كتاب . ولم يظهر عن العطار
منذ انتقل إلى جوار ربه دراسة قائمة بذاتها فى كتاب مستقل خاص به . وبهذا
كان كتابنا هذا أول كتاب مستقل يظهر فى المكتبة العربية عن الشيخ حسن
العطار .

ومن الكتاب والباحثين الذين كتبوا عن العطار من اكتفوا بعرض طرف من
سيرته ، أو نتف من أخباره دون إبداء رأى فيه ، أو تقدير له ولكانته فى النهضة

الحديثة التي بدأت في القرن التاسع عشر . ومنهم من أضاف إلى الأخبار عنه رأياً فيه وتقويماً له . وسنعرض في هذا الفصل آراء الكتاب في الرجل منذ عصره حتى زماننا هذا . وأول من يصادفنا هنا المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي صديق العطار ورفيقه ، فقد قال في معرض ترجمته للشيخ محمد عرفة الدسوقي : (وقد رثاه أمثل من عنه أخذ ، وأكمل من له تتلمذ ، صاحبنا العلامة ، وصديقنا الفهامة ، المنفرد الآن بالعلوم الحكمية ، والمشار إليه في العلوم الأدبية ، صاحب الإنشاء البديع ، والنظم الذي هو كزهر الربيع ، الشيخ حسن العطار)^(١) . ويقول عنه أحد تلاميذه الأديب المصري مصطفى بكري الساعاتي : (. . . العالم المفرد ، والعلم الأوحده ، رب الشعر والقريض ، والفنون التي هي كالروض الأريض ، ذو التأليف الشائقة ، والتحقيقات الفائقة ، أوجد الفضلاء . . . المتفنن في علوم لا يعرفها إلا أفراد قليلة ، الحائز قصب السبق في مضمار كل فضيلة ، شيخنا بل وشيخ كل من نظم ونثر ، وقرأ العلوم وحرر ، أبو السعادات حسن ابن محمد الشهير بالعطار)^(٢) . ويقول عنه تلميذه رفاعه الطهطاوي : (كان له مشاركة في كثير من العلوم ، حتى في العلوم الجغرافية . . . وكان يطلع دائماً على الكتب العربية من تواريخ وغيرها ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية)^(٣) . ويقول عنه علي مبارك : (إنه اشتغل بغرائب الفنون والتقاط فوائدها) . أما مؤرخ الرجال للقرن الثالث عشر : الشيخ عبد الرزاق البيطار ، فيقول عنه : (ولقد انفرد في علم الأدب ، وأجاد فيما نظم ونثر ، وأحاطت به الفنون إحاطة المالة بالقمصر . . .)^(٤) . ويقول عنه مؤرخ الصحافة العربية فيليب طرازي : (وقد خلف عدة تأليف في الأصول والنحو والبيان والمنطق والطب . . . وكان هذا الشيخ عالماً بالفلكيات ، وله في ذلك رسائل في كيفية العمل بالأسطرلاب والربعين المقنطر والحجيب والبساط . . . وكان يحسن عمل المزاول الليالية

(١) الجبرتي : ج ٤ ص ٢٣٢ .

(٢) روضة المدارس - العدد ١٨ ص ٢٧ .

(٣) مباحج الألباب المصرية ص ٣٧٥ .

(٤) حلية البشر - ج ١ ص ٤٨٩ .

والنهارية ، وقد اشتهر أيضاً الشيخ العطار بفنون الأدب والشعر . . . (١) . ويقول عنه الدكتور طه حسين وزملاؤه في تأليف « المنتخب » : (. . . وكان مع علمه كاتباً شاعراً بليغاً) (٢) . أما الأستاذ محب الدين الخطيب فيصفه بقوله : (وكان متضلعا في العلوم الرياضية ، فضلا عن العلوم الشرعية والعربية) (٣) . ويتحدث عنه مؤرخنا عبد الرحمن الراجحي في معرض ترجمته للشيخ رفاعه فيقول : (وكان الشيخ حسن العطار من علماء مصر الأعلام ، وامتاز بالتضلع في الأدب وفنونه والتقدم في العلوم العصرية . وكان هذا نادراً بين علماء الأزهر) (٤) . ويصفه أستاذاً للشيخ أحمد الإسكندري وزملاؤه في تأليف « المفصل » بقولهم : (هو العالم الكاتب الشاعر ، أكب على كتب الأدب فأصاب منها حظاً عظيماً ، وأجاد الشعر وأثر كليهما) (٥) . ويصور الأديب خليل شيبوب تطلعات العطار واتساع أفقه بقوله : (وقد جاب الأقطار الشرقية ، وعاد إلى مصر وفي عينيه آفاق جديدة ، وفي فؤاده صور وعبر . فهو يحدث عن دمشق والقسطنطينية ، والجبال والصحراء ، والأودية والبحار ، ولكن نفسه لم تكن مستريحة إلى حال الخمول التي رأى عليها الشرق وأهله وتخونهم إلى الحكام المستبدين ، وانصراف العلماء إلى المنفعة والمصلحة) (٦) ويصفه الدكتور عبد الحميد يونس بقوله : (وكان رجلاً شاعراً ناثراً مستثيراً اشتهر بغزارة علمه . . .) (٧) ، ويتتقد الأستاذ عمر الدسوقي تكلفه وتعمده للسجع في نثره ، ولكنه يحمل تقويمه بقوله : (على أن الشيخ العطار — مع هذا — من أحسن كتاب عصره وشعرائه ديباجة ، وأقلمهم تكلفاً) (٨) . ويشيد المرحوم الأستاذ عبد المتعال الصعيدي

(١) تاريخ الصحافة العربية ج ١ . ص ١٢٩ .

(٢) المنتخب — لطه حسين وزملاؤه ج ٢ ص ٤٧٩ .

(٣) كتاب : الأزهر — محب الدين الخطيب — ص ٣٧ .

(٤) عصر محمد علي ص ٤٧٢ .

(٥) المفصل لأحمد الإسكندري ورفاقه ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٦) عبد الرحمن الجبرتي — سلسلة اقرأ — تحليل شيبوب ص ١٠٧ .

(٧) الأزهر — لعبد الحميد يونس وعبدان توفيق — ص ١٣٢ .

(٨) في الأدب الحديث — لعمر الدسوقي — ج ١ ص ٤٨ .

بموقف العطار من الدعوة إلى العلوم العصرية فيقول : (ولا شك أن موقف الشيخ حسن العطار من العلوم الرياضية بشكلها الجليد يدل على ما كان يمتاز به من مرونة عقلية ودينية ، وعلى أنه كان في هذا أحسن حالاً من أهل الأزهر الذين حاربوها بعده باسم الدين . . .)^(١) ولكنه ينتقد موقف العطار الضعيف وضوئه الخافت الذي لم يستطع الجهر به ، بل كان يرسله في مواضع مخبوءة من أحد كتبه في الفقه . أما الدكتور حسين فوزي النجار فيقدره بقوله : (وكان العطار جواباً آفاق ، محباً للأسفار . فساح في البلاد العربية ، وأقام في بعضها زمناً ، وارتحل إلى تركيا وليث بها حيناً ، فأفاده الترحال قدرة على التأمل ، كما أفاده اتصاله بعلماء الحملة الفرنسية معرفة بسر نهضتهم وقوتهم . . .)^(٢) . ويلخص لنا الأديب الباحث سامي بدرأوى رأيه في العطار بقوله : (والخلاصة أن الشيخ حسن العطار كان له موقف متكامل من مشكلات مجتمعه الثقافية والتعليمية والأدبية والسياسية . وقد حاول أن يشخص هذا الواقع ويحدد جوانب الضعف فيه ، كما نادى بضرورة تغييره ورسم برنامج هذا التغيير . وأخيراً أنه عهد بأمانة هذا التغيير ومستقبله إلى تلاميذه الذين يعتبر رفاة رافع الطهطاوى نموذجهم الفذ الذي بلغت حركة العطار على يديه أوجهاً)^(٣) . ويوجز لنا المستشرق كراتشكوفسكى تقديره للعطار بقوله : (ولم يكن الشيخ حسن العطار عالماً فحسب ، بل وشاعراً أيضاً . .)^(٤) . ويحمل لنا المستشرق فولرز رأيه في العطار في الفصل الذى كتبه في دائرة المعارف الإسلامية ، مادة الأزهر ، فيقول : (وكان العطار رجلاً مستتيراً ، اشتهر بعلمه ، وكان أيضاً شاعراً ناثراً)^(٥) . هذا هو حسن العطار في تقدير جماعة من المؤرخين والعلماء والأدباء من

(١) تاريخ الإصلاح في الأزهر ص ٢١ .

(٢) رفاة الطهطاوى - سلسلة أعلام العرب - ص ٦٣ .

(٣) مجلة الحجة - عدد مارس سنة ٦٥ ص ٦٥ .

(٤) حياة الشيخ محمد عباد الطهطاوى - ص ٢٦ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية - المجلد الثانى - مادة أزهر ، ص ٦٥ .

أهل عصره ، ومن أهل زماننا . وسيمتد تقدير الرجل على مدى الزمان ، لأن
تنبيهه وتنبيهه إلى قيمة العلوم العصرية ، وإلى البعد عن الجمود قد آتى ثمرته ،
وخاصة على يد تلميذه رفاعة الطهطاوى الذى كان رائد النهضة فى العصر الحديث .

الفصل الثالث

جوانب حسن العطار

١ - حسن العطار الشاعر

أجمع الذين ترجموا للعطار أو تناولوه بشيء من الدراسة والتعريف على أنه كان شاعراً . ولا بد أن نضع الرجل في مكانه الصحيح من شعر ذلك العصر الذى عاش فيه . فلو أننا قسناه بمعايير زماننا وما طرأ عليها من تجديد في النظر إلى الشعر لظلمنا الرجل ظلماً بيناً . والحق أن العطار كان - كما لاحظ تلميذه الأديب الشيخ مصطفى بكرى الساعاني - ينحو في الشعر منحى أهل الأندلس في قصائدهم ، ولم يحد عن طريقتهم التي بها تفوقوا وانفردوا عن سواهم ^(١) . ولم يكن العطار في جريه على طريقة الأندلسيين مخالفاً لأهل عصره والعصر الذى سبقه . فإننا نلاحظ أن شعراء القرن الحادى عشر الهجرى والثانى عشر الهجرى كانوا يعارضون شعراء الأندلس في نظم الموشحات ، فالشاعر إسماعيل الطهوى المصرى الموسيقى الملحن والمتوفى سنة ١٢١٢ هـ عارض موشحة لسان الدين بن الخطيب ^(٢) . وقد سبقت الإشارة إلى موشحة العطار التي عارضها رفيقه الشاعر إسماعيل الخشاب بموشحة في ديوانه . كما أن له بعض موشحات روى طرفاً منها في كتابه حاشية العطار على الخبيصى ، صفحة ٢٥٧ .

ولم يكن العطار راضياً عن المستوى الذى هبط إليه الشعر العربى في عصره ، فقد عاب عليه هبوطه إلى المدح الكاذب ، حتى ترفع الشعراء الحقيقيون عن نظم المداخل وتجاؤوا بأنفسهم عنها ، لما فى ذلك من انحطاط القدر . ولقد صور لنا هو بقلمه هذه الظاهرة بقوله من رسالته الجلييلة إلى تلميذه الشيخ مصطفى

(١) مجلة روضة المدارس - عدد ١٨ ص ٣٦٩ .

(٢) تاريخ الجبلى - طبعة لجنة البيان العربى ج ٤ ص ٢٧٥ .

بكبرى : (. . .) ولما تعاطى الشعر بعض الخاملين . ليتوصل به إلى امتداح ما ليس حقيقياً بالمدح ، واستمنح ما استرشاح الماء من الصلد أهون ما يطلبه منه من المنح ، تسفل قدره ، وانحط أمره ، وتجافى بنفسه عن نظم المديح ، كل ذى لب رجيع ، وطبع صحيح . لما رأى فى ذلك من الإزراء وانحطاط القدر ، وتحمل لائم الكذب ، والوقوف مواقف الدل ، وترقب بارق خلب المواعيد ، والطمع فى استرشاح الصم الجلاميد . : (١) .

ولقد كان فى حسن العطار رقة طبع ، وسلامة ذوق ، ورهافة حس ، فأثر شعر الغزل والنسيب والتشبيب . وعبر عن ذلك بقوله فى رسالته : (وأنا أرجو أن لا يكتب إلا ما لطف من النسيب ، وعذب من التشبيب) . وكان يضطر بعض الحين - بحكم الملابسات والظروف - إلى أن ينظم فى غير الغزل ، وخاصة فى المدح - كمدحه لمحمد على - ولكنه يعترف لنا فى رسالته ، بل يقسم بالله بأن غير النسيب فى شعره لم يكن يخطر إلا قسراً ! (وإن أتيت بشيء منه فلانى معترف بأنى جئت شيئاً لأمرا) (٢) ، فكأنه كان مكرهاً على أن يركب من مراكب الشعر الصادق ما ليس من طبعه ، ويقول فى هذا : (مكره أخاك لا بطل) .

ولإقلال العطار من شعر المديح إلا لضرورة قصوى - كالضرورة التى ألجأته إلى مدح محمد على - يدل على أصالة طبع هذا الرجل ، وصدق نفسه ، وترفعه عن طلب ما فى أيدي الناس ، وقد عبر لنا عن إعجابه بأبيات عمران ابن حطان التى قالها مخاطباً الفرزدق حين سمعه ينشد شعره فى المديح :

أيها المادح العباد ليعطى إن الله ما بأيدي العباد .
فاسأل الله ما طلبت إليهم وارج فضل المقسم العواد
لا تقل للجواد ما ليس فيه وتسمى البخيل باسم الجواد
أما شعر الرثاء فما ركبته العطار إلا مجبراً بعد إلحاح من طالب لا يستطيع

(٣) مجلة روضة المدارس - عدد ١٩ - ص ٣٩٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٨ .

دفعه لإيجابته إليه ، كما قال في رسالته لتلميذ مصطفى بكري . على أنه في بعض مرثيه الماثورة كان فيه براعة الالتفات إلى صفات المرقى ، حتى ولو كانت موضع نقد من الناس : فقد كان التسيّد أبو الأنوار السادات معروفاً بالتعاضم والتفاخر في زمنه ، فلما مات نظم العطار في رثائه قصيدة استهلها بالإشارة إلى ما كان عليه من التعاضم والتفاخر ، فقال في الشطر الأول من مطلعها : سلام على الدنيا فقد ذهب الفخر ^(١) ! ومن مرثيه الصادقة قصيدته في رثاء شيخه محمد عرفة اللسوقي التي يقول فيها :

أحاديث دهر قد ألمّ فأوجعا وحل بنادى جمعنا فتصدها
لقد صال فينا البين أعظم صولة فلم يخل من وقع المصيبة موضعاً
ولم يهيج العطار إلا مضطراً في حالات نادرة ، ويصرح لنا هو بقوله :
(وأما الهجاء فلم ينفق لي سوى أبيات وقعت عن سهو ، وقد لعبت بها - والله الحمد - أيدي الإزالة والهو) ^(٢) . وتراه هنا كالمعتذر عن هذا الهجاء ، ويحمد الله أن يد الإزالة قد محتته . على أن الزمان الذي لا يضيع عنده شيء قد حفظ لنا بعض هجائه ، فهو يهجو شخصاً بقوله :

أنى لأكره في الزمان ثلاثة ما إن لها في عدها من زائد
قرب البخيل ، وجاهلاً متفاضلاً لا يستحي ، وتودداً من حاسد
ومن البلية والرزية أن ترى هذى الثلاثة جمعت في واحد ^(٣) ...
على أن موقف الفرنسيين من مصر والمصريين في أثناء حملتهم الغادرة قد حمل العطار على هجائهم بقوله :

إن الفرنسييس قد ضاعبت دراهمهم في مصرنا بين حمار ، وخمارا

(١) تاريخ الجبرق - طبعة بولاق - ج ٤ ص ١٩٥ .

(٢) روضة المداين ص ٢٨ .

(٣) الخطط ج ٤ ص ٣٩ ، وكتاب الأثر بين الماضي والحاضر ص ٦٧ .

وعن قريب لهم في الشام مهلكة يضيق فيها لهم آجال أعمار! (١)
وطبيعة الشاعر الرقيق الأصيل عند العطار قد حملته على أن يتأثر بالطبيعة
فيصفها ، وهو وصف فيه من الصدق والتأثرودة الملحظ ما يدل على صفاء
نفسه . ولا تزال تتردد في سمع الزمان أبياته التي قالها في وصف بركة الأزبكية
ومنها قوله :

بالأزبكية طابت لي مسرات ولدلي من بديع العيش أوقات
حيث المياه بها والفلك سباحة كأنها الزهر تحويها السموات (٢)
على أنه حين فر إلى أسبوط خوفاً من الفرنسيين لم يفته أن يصور هذه
العاصمة الجميلة بقوله :

سقى لأسبوط ذات الظل والشجر ومربع اللهو واللذات والزهر
منازل بصنوف العيش عامرة يلهو النديم بها في مشتهى الوطر (٣)
وحين أقام العطار بدمشق أخذت بقلبه غوطتها ومحاسنها ومتنزهاتها ، فقال
يصفها من قصيدة طائية :

بوادي دمشق الشام جزبي أخا البسط . وعرج على باب السلام ولا تخطي
عراس أشجار إذا الريح هزها تميل سكارى وهي تخطر في مرط (٤)
كساها الحيا أثواب خطر فدفرت بنور شعاع الشمس والزهر كالقرط
وقد نظم حسن العطار في أغراض آخر ، فهو يبنى في بعض المناسبات ،

(١) الجبرق - طبع لجنة البيان ج ٥ ص ١٨ .

(٢) روضة المنارس عدد ١٩ ص ٦ وإنشاء عطار ص ٦١ ، وبصرى القرن الثامن عشر

ص ٥١ ج ١ .

(٣) إنشاء العطار - ص ٥٨ .

(٤) الآداب العربية لشيخوخة ١ ص ٥١ ، والخطط التوفيقية ج ٤ ، ومجلة المجلة عدد رقم ٩٩ .

كهنثته لتقيب أشراف القدس بعودته إلى النقابة بعد أن أبعد عنها : فيقول :
 الحمد لله على فضله قد رجع الحق إلى أهله
 وآثر روض الفضل ذابها من بعد ما أشفق من محله
 قد يتساوى اثنان في منصب وإنما التفريق في سبيله
 ومفخر المرء بأفعاله لا بالذي قد مات من أهله (١)
 وهو ينظم شعراً تاريخياً ينقش على قاعة الجلوس في بيت الأمير المملوك
 محمد بك الأتلي يقول فيه :

شموس التهانى قد أضاعت بقاعة محاسنها للعين تزداد بالألف
 على بابها قال السرور مؤرخاً سماء سعاداتي تجدد بالأتلي (٢)

على أن أرق ما في شعر حسن العطار هو غزله الذى يقول في بعضه :
 أعن المحب ثناك عنه وجيبه أم قد دعاك إلى البعاد رقيب ٩
 هجر الكرى لما هجرت ، وواضلك شجونه وازداد فيك نحيبه
 لم يجن ذنباً في هواك ، وإنما قد كان بالهجران منك نصيبه (٣) ...
 ويقول في بعضه الآخر :

إلى متى أشكو ولم ترث لى ؟ أما كفى أن رقى لى على ١٩
 يا باخلا بالوصل عن عاشق بعسجد الأجفان لم يبخل
 أنفق فى حر الهوى عمره وعن أمانيه فلا تسأل !
 على أنه في بعض مدائحه الشعرية القليبة كان يفتح بالغزل تخلصاً إلى

(١) الخط التوقيفية ج ٤ .

(٢) تاريخ الجبرق - طبعه بولاق - ج ٤ ص ٢٨ ، وطبعة لجنة البيان ج ٦ ص ٣٢١ .

(٣) إنشاء السطار ص ٥٤ .

المدح كما فعل في ملحته لإبراهيم « باشا » .

وقد يبدو الغزل غريباً من عالم فقيه أصولي محقق كان شيخاً للأزهر ! ولكن ليس في هذا غرابة من واقع الأحداث والتاريخ . فالشيخ عبد الله الشبراوي كان شيخاً للأزهر في القرن الثاني عشر ، بل كان سادس شيوخه على ترتيبهم في تولد المشيخة ، ومع هذا له القصيدة الغزلية الرقيقة التي يتغنى بها في عصرنا هذا من أرق الحناجر الملائكية ، ومطلعها :

بحقك أنت المني والطلب وأنت المراد وأنت الأرب ا
ولي فيك يا هاجري صبوة تحير في وصفها كل صب (١)
وكان بعض شيوخ الأزهر المترمين يتغزل في شعره ، كالعلامة الشيخ
محمد الأمير - أستاذ العطار - الذي يقول

أيها السيد المذل ضاعت في الهوى ضيعتي ، وأنسبت نسكي
يا لك الله ! لا تمل لسوائي وتحكم ولو بما فيه فتكى ا
وانظر الحق في علو غناه كل شيء يحويه غير الشرك (٢) !
وكالعلامة النحوي الشهير الشيخ محمد الصبان الذي يقول :

وهق صبح المحيا مع دجى الشعر وجنة الخلد مع راح اللمى العطر
ومقلة بنفون السحر قد كخلت وقامة رشحتها خمرة الخفر
ما غير البعد عهدى في الغرام ولا نسيت ودأ مضى في سالف العصر (٣)

كما كان يتغزل بعض الشيوخ المتطرفين ، كالشاعر محمد شهاب الدين تلميذ صاحبنا العطار ، الذي شحن ديوانه بهذا الفن من الشعر ! فالعطار !

(١) ديوان الشبراوي ص ٨ ، ٩ . وكتاب الأزهر بين الماضي والحاضر - ص ٦٥ .

(٢) تاريخ الجبرتي - طبع بولاق ج ٤ ص ٢٨٥ .

(٣) تاريخ الجبرتي - طبع لجنة البيان - ج ٤ ص ٢٠٧ .

لم يخرج عن نهج شيوخه الكبار في الغزل والنسيب ، كما لم يخرج تلاميذه المشايخ عن نهجه في الغزل ، وعلى رأسهم الشاعر شهاب الدين !

بقى أن نقول كلمة عن ديوان حسن العطار . ففي ديوان الخشاب إشارة إلى أن بقية موشحة العطار موجودة في ديوانه^(١) . والجبرتي يقول في خلال ترجمته للشيوخ شامل الطرابلسي إن قصيدة العطار في مدحه التي مطلعها :

انهض فقد ولت جيوش الظلام وأقبل الصبح سفير اللثام

مسطرة بديوانه^(٢) . ويقول العطار عن نفسه : (ضاع مني بدمشق كراس من ديوان الشعر)^(٣) . ويقول الأب لويس شيخو : (وله شعر رائق جمع في ديوانه) . وينقل عنه فيليب طرازي هذه العبارة بنصها^(٤) . وينقل هذا الكلام الأستاذة الزركلي ، وعمر رضا كحالة ، وعمر الدسوقي . ولكن الأستاذ المحقق أحمد الإسكندري يقول في الفصل : (ولم يجمع شعره في ديوان خاص ..)^(٥) . ونخلص نحن من هذه الأقوال التي تكاد تتعارض ، بأن ديوان العطار كان مجموعاً ، ولكنه ضاع بعضه في حياته — كما يقول هو — وضاعت بقيته بعد وفاته .

على أن حديثنا عن العطار الشاعر لا ينسينا كلامه الدقيق الرقيق في الشعر والوزن . فقد جرى على رأي القائلين بعدم اشتراط الوزن في الشعر^(٦) . كما أن كلامه في التأثير بالشعر وتأثيره وجمالية طبع الذي لا يتأثر يدلنا على مبلغ إحساس هذا الشاعر وشاعريته . وحسبنا أن نحيل القارئ على كلامه في هذا

(١) ديوان الخشاب ص ٣٤٥ .

(٢) الجبرتي — طبع اللجنة — ج ٥ ص ١٤٦ .

(٣) مجلة روضة المدارس ص ٢٨ عدد ١٨ .

(٤) تاريخ الصحافة العربية ج ١ ص ١٢٩ .

(٥) الفصل ج ٢ ص ٢٣٥ .

(٦) العطار على الخبيص ص ٢٥٧ .

الموضوع في كتابه أو حاشيته على كتاب المنطق^(١).
ولن نقبّر سماء شاعرية العطار بمنظوماته في العلوم ! وخاصة في النحو :
فيكنى أن يرجع القارئ إليها في حاشيته على شرح الشيخ خالد في النحو ، وذلك
ضروري لمن يريد أن يتوسع في جوانب النظم عند هذا الشاعر الرقيق^(٢) . . .

٢ - حسن العطار الناثر

يلفت حسن العطار نظرنا في تطور أساليب التعبير بهذا الكتاب الذي ألفه
وأسماه كتاب « الإنشاء » وجعل همه فيه أن يضع نماذج - من قلمه - من
المخاطبات والرسائل الإخوانية ، والخطب ، والإجازات العلمية ، والكتابة
الدبلوماسية ، وشروط كتابة الوثائق والصكوك . فهو يضع دستوراً للكتابة في عصره
ويعززه بالنماذج الكثيرة التي وضعها بقلمه هو . وهي محاولة تدلنا على مبلغ اهتمام
الرجل بتطوير وسائل التعبير وأساليب الكتابة في عصره . كما تدلنا على أن الرجل
أحس بأنه صاحب رسالة في هذا السبيل . ولا شك أن انحدار الأساليب ،
وانحطاط الكتابة في أواخر القرن الثامن عشر حتى يجيء الحملة الفرنسية إلى مصر
سنة ١٧٩٨م كان باعثاً للشيخ العطار على أن يجدد لها من الرسوم ، ويجدد لها
من المعالم ما تغدو به متطورة مع العصر . ولا نزع أن العطار كان مجدداً بالمعنى
المعروف في التجديد ، ولكنه كان شيخاً متنوراً أحس أن في طريقة الكتابة في
زمانه ما يحتاج إلى تخطيط وترشيد . فوضع للمتأدبين وشدة الأدب نماذج في
الإنشاء : على أن لا يقلدوها ويردودها ، كما كان يقلد ويردد خطباء المساجد
تلك الخطب المنبرية التي كانت مجموعة في مصنفات ، كخطب ابن نباتة مثلاً !
لا ! لم يرد العطار محاكاة عمياء ، ولكنه وضع بين يدي الطالب ما يعينه على

(١) المصدر السابق ص ٢٥٨ .

(٢) تجد نماذج لهذا الشعر التعليمي في صفحات ٦ - ٣٤ - ٥٨ - ٨٥ - ٦٣ - ٧٠ -

٧٥ - ٨٧ من حاشية العطار على الأثرية .

تقوم عبارته ، وتحسين كتابته ، وإثرائها بالمثل الشroud ، والشعر المستشهد به ، والسجعة اللطيفة ، والفقر الظرفية ، حتى تكون ذخيرة للمتأدب يأخذ منها ما يريد حيث يريد .

وبالطبع لم يستطع العطار أن يخرج على رسوم عصره في الكتابة والنثر ، من حيث استعمال السجع ، ومحسنات البديع ، والحلى اللفظية . فهو في هذا نموذج لرجال العصر كله . إلا أنه تخفف كثيراً من هذه المحسنات والزخارف والأسجاع التي لم يكتب للنثر العربي الحديث التخلص منها إلا بعد أكثر من قرن كامل ، حيث ثار الشيخ محمد عبده ثورته المباركة عليها ، وتابعه الكتاب والمفكرون من بعده .

والحق أن العطار بحكم تنوره ، وصفاء ذهنيته ، وكثرة رحلاته وجولاته ، واتصاله بالفرنسيين ، وإطلاعه على كتب الغربيين المترجمة ، استطاع أن يتحرر من كثير من الأصناف التي كانت تكبل الأقلام في ذلك الزمان . واستطاع أن يوازن باعتدال بين طرائق التعبير التي كانت سائدة في ذلك الزمان ، واستطاع أن ينزل الكلام منازل رعاية لمقتضيات الأحوال . فتراه يسجع حين يكون السجع حلية في الكلام ومزية لا يستغنى عنها ، ولا يحلو إلا بها وتراه يرسل ترسلًا واضحاً شائعاً حين لا يكون هناك معدى عن إرسال الكلام ويبدو ذلك جلياً في استطراداته اللامعة الذكية التي كان يرسلها في حواشيه وكتبه من حين إلى حين . فحين لاحظ على شيوخ الأزهر إعراضهم عن كتب المتقدمين ، أخذ يلومهم في موطن من حاشيته المشهورة على «شرح جمع الجوامع» في أصول الفقه قائلاً «في أسلوب مرسل دقيق: (إن من تأمل في علمائنا السابقين يجد أنهم كانوا - مع رسوخ قلمهم في العلوم الشرعية - لم اطلاع عظيم على غيرها من العلوم والكتب التي ألفت فيها . حتى كتب المخالفين في العقائد والفروع . وأعجب من ذلك تجاوزهم إلى النظر في كتب غير أهل الإسلام من التوراة وغيرها من الكتب السماوية واليهودية والنصرانية . ثم هم - مع ذلك - ما أدخلوا في تنقيف ألسنتهم برفائق الأشعار ، ولطائف المحاضرات . ومن نظر في ذلك ،

وفيما انتهى إليه الحال في زمان وقعنا فيه : علم أنا منهم بمنزلة عامة أهل زمانهم . فإن قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أن نخترع شيئاً من عندنا . وقد اقتصرنا على النظر في كتب محصورة ألفها المتأخرون المستمدون من كلامهم ، نكرها طول العمر ، ولا تطمح نفوسنا إلى النظر في غيرها ، حتى كأن العلم فيها !... (١) .

ومن استطرادات العطار المرسلة في غير سجع ولا تكلف قوله في الحريق الذي حدث بالقلعة سنة ١٨٢٣ : (. . . والحريق الذي بالقلعة وبها أمكنة فيها بارود ، فهدم البارود معظمها ، وأهلك خلقاً كثيراً وحيوانات وأمتعة . وارتجت منه مصر مرتين ، مرة بعد المغرب ، والثانية في أول الساعة الخامسة ، بل تحدث الناس بوصول هذه الرجة إلى القرى البعيدة . وعجز الناس عن إطفاء النيران تلك الليلة . ثم في اليوم الثاني تكاثرت الدولة والناس وأخذوا في إطفائها ، وقد استمرت ليلتين ويومين ، ولولا لطف الله وعنايته ورحمته بالامة المحمدية لهلكت مصر برمتها وأهلها ، بل وتعدى ذلك إلى كثير من القرى ، كما أخبر بذلك أهل الخبرة) (٢) .

ورسالة العطار التي وصف بها الطاعون في الصعيد وبعث بها إلى الجبرقي المؤرخ هي نموذج آخر لهذا النمط المرسل الذي كان يرسله الرجل بلا تكلف ولا قيود (٣) . والواقع أن الرجل كان يتحرر من السجع والمحسنات والزخرف في رسائله الخاصة أو استطراداته في كتبه . أما الرسائل التي وضعها في كتابه (الإنشاء) على أنها نموذج للنثر ، فقد تعتمد فيها السجع والحلية ، كما ذهب في بعضها أحياناً مذهب التكلف . وتمثل رسالته التي جعلها (لكاتب بليغ) لوناً من صناعته البيانية في أدب الرسائل . فقد جعلها نموذجاً لما يكتب إلى كاتب بليغ ، كما جعل نماذج لما يكتب ويرسل إلى رجال القضاء وشيوخ الطرق ، والأمراء والقواد ، والولاة . ونسوق هنا بعض رسالته إلى « كاتب بليغ » ومنها نستخرج

(١) حاشية العطار على شرح جمع الجوامع - ج ٢ - ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٢) حاشية العطار على شرح الخيصر - ص ١٣٨ .

(٣) انظر هذه الرسالة قبل هذا في الفصل الذي عنوانه : وصاف الأوبئة .

قواعد طريقته في الكتابة الإنشائية : (سلام عاطر الأردن : تحمله الصبا سارية على الرند^(١) والبان ، إلى مقام حضرة المخلص الوداد ، الذي هو عندي بمنزلة العين والفؤاد : صاحب الأخلاق الحميدة ، حلية الزمان الذي حل بها معصمه وجيده ، الذي موصول إحسانه بكل فضل عائد ، كثر المعارف عقد درر الفوائد ، الذي إذا أجرى أقلامه في ميدان الطروس . أودع فيها من لآلئ البيان ما يفعل بالنفوس ، فعل حميا الكؤوس ، من معان حيرت المعاني ، وفعلت بالألباب ما لا تفعله المثالث والمثاني . . .) . ولا نجد أصدق حكماً على أسلوب العطار مما قاله الأديب سامي بدرأوى : (ويغلب على أسلوب العطار البساطة والسهولة والحرص على الفكرة ونقلها إلى القارئ : فالأسلوب عنده مجرد وسيلة للتعبير وليس غاية في ذاته . ومع ذلك فهناك في بعض كتابات الرجل السجع والمحسنات البديعية عموماً . ومن غريب الأمر أن ذلك يكثر حيث يقصد الرجل إلى الإنشاء الأدبي ، أو الكلام في فلسفة الأدب ، ويقل في مؤلفاته العلمية حيث يسهل أسلوبه : ويسلس حتى ليوشك أن يكون معاصراً^(٢)) .

وهذه النتيجة التي انتهى إليها هذا الأديب الذي اهتم بالعطار هي أقصى ما يمكن أن نصل إليه من نتائج صحيحة حول نثر العطار .

ولا يقال إن العطار كان ذا شخصية مزدوجة في كتاباته ، فالرجل بسيط سهل في تعبيره ، وهو مترسل قريب الأداء ، ولكنه جعل كتابه في (الإنشاء) نموذجاً لعشاق الأسجاع والمحسنات ، حتى يكونوا من تعبيراتهم على أسلوب سواء .

٣ - الفلكيات وعالم الفلك

لقد جمع حسن العطار إلى شهرته في العلوم الشرعية والشعر والكتابة شهرة في الاشتغال بالعلوم الفلكية . ولم يكن مجرد مطلع عليها ، بل كان متمكناً

(١) الرند ثبت طيب الرائحة ، والبان شجر معتدل القوام .

(٢) مجلة المهلة عدد ٩٩ .

منها ، متعمقاً فيها ، مشتغلاً بالآلاتها ، عاملاً فيها . ويذكر لنا أحد مترجميه (أنه كان عالماً بالفلكيّات . له في ذلك رسالة في كيفية العمل بالأسطرلاب ، والربعين المقنطر والحبيب والبساط ، وكان يحسن عمل المزاويل الليلية والنهارية ^(١) . ولم يكن . الاشتغال : بالفلك وعمل المزاويل غربياً على مشايخ ذلك العصر . فالجبرقي المؤرخ يذكر لنا كيف كان والده الشيخ حسن الجبرقي متمكناً من علوم الفلك ، وكيف قصده الوالي العثماني أحمد « باشا » كور بعد ما سمع عن علمه ليطالع عليه كتب الفلك والحساب ، وليشتغل عنده برسم المزاويل والمنحرفات حتى أتقنها ^(٢) . كما يذكر لنا مؤرخنا عبد الرحمن الجبرقي في وفيات سنة ١٢٠٣ هـ وفاة العالم الماهر الشيخ مصطفى الخياط الذي برع في التقويم وحل الأرباب وتحويل السنين ومقننات الكسوف والخسوف ، واستخراج أوقاتها وساعاتها ودقائقها ، مع الضبط والتحريير وصحة الحدس ، وعدم الخطأ (وكان يستخرج في كل عام دستور السنة من مقومات السيارة ، ومواقع التواريخ ، وتواقيع القبط والمواسم والأهلة ، ويعرب السنة الشمسية لنفع العامة ، وينقل منها نسخاً كثيرة يتناولها الخاص والعام ، يعملون منها الأهلة وأوائل الشهور العربية والقبطية والرومية والعبرانية والتواقيع والمواسم وتحاويل البروج وغير ذلك) ^(٣) .

وكان العلماء في ذلك العصر لا يكفون بمطالعة مصنّفات الفلك ، بل يذهبون خطوة أبعد في التطبيق العملي . فقد كان للشيخ أبي عبد الله التاودي عالم المغرب ولدان أحضرهما معه إلى مصر ، ثم تركهما فترة من الزمن في رعاية الشيخ حسن الجبرقي والد مؤرخنا ، وكانا رقيقين لعبد الرحمن المؤرخ ، ومعهم الشيخ أحمد السوسي ، وسالم القيرواني ، ويحدثنا المؤرخ عن ذكرياته معهم قائلاً : (كنّا نطالع معهما سوياً ، ونسهر غالب الليل ، نراعى المطالع والمغارب ، ومرات الكواكب بالسطح جذاء خيط المسطرة ، ونراجع الشيخ - يريد والده

(١) تاريخ الصحافة العربية - لفيليب طرازي - ج ١ ص ١٢٩ .

(٢) الجبرقي - طبع اللجنة ج ٢ ص ٨٤ .

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ١١٥ .

الجبرتي الكبير — فيما يشكل علينا فهمه ، وهو معنا في ناحية أخرى . . . (١) .
وقد أتبع للشيخ حسن العطار أن يطلع على آلات الفلك والرصد عند
الفرنسيين ، كما اطلع عليها صديقه وصفيه المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي . وإذا
كان الجبرتي قد وصف لنا — بعد معاينة وخبرة — الآلات الفلكية عند الفرنسيين ،
المتقنة الصنع ، وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب ، العالية الثمن ،
المصنوعة من الصفر المموه ، والنظارات للنظر في الكواكب وأرصاها ، ومعرفة
مقاديرها وأجرامها ، وارتفاعاتها واتصالاتها ومناظراتها (٢) — فإن حسن العطار
أيضاً يذكر لنا في مقامة له أنه اطلع عند الفرنسيين على كتب كثيرة في العلوم
الرياضية والأدبية ، كما اطلع على آلات فلكية وهندسية (٣) .

وإذا كان عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المشتغل بالفلك قد حزن وأسف أشد
الأسف عندما ثار العامة بمصر على الفرنسيين وخاصة على الميسو (كفريل)
الذي كان يسكن في بيت مصطفى كاشف طرا ، فنهبوا الدار ، وقتلوا بعض من
بها من الفرنسيين ، وكان مما نهب وحطم كثير من آلات الصناعة ، والنظارات
الفريية ، والآلات الفلكية والهندسية مما هو معدوم النظير ، وكل آلة من هذه
الآلات لا يعرف قيمتها إلا من يعرف صنعها ومنفعتها — إذا كان الجبرتي قد
أسف لذلك الحادث الذي كانت نتيجته تحطيم عدد من تلك الآلات الثمينة ،
فلا شك أن العطار لم يكن أقل منه أسفاً ، لأنه كان أدري بقيمة هذه الآلات ،
وما تقدمه للعلم من منافع .

٤ — الاهتمام بالدراسات الأدبية

استطاع العطار أن يكتسب صفة الأديب بالإضافة إلى صفة العالم الفقيه .
والحق أنه كان على تمكته في علوم الشريعة وأصول الفقه والتوحيد ذا ميول أدبية

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٥٠ .

(٣) المجلة عدد ٩٩ .

واضحة . فلم يكن فيه تزمّت الشيوخ وتنطع الفقهاء ، وجمود علماء الشرع ، بل كان شيخاً رحب الأفق ، لطيف الحس ، رقيق الذوق ، وكان له مجال واسع في كتب الأدب والأسمار والمحاضرات والأشعار . ولم يكن يرى أن الأدب من علوم البطالة ، وموضوعات الفراغ . ولكنه رأى الأدب ضرورة لترقيق النفس ، وإرهاف الحس ، وسلامة الذوق ، وصحة الحكم . وهو بهذا أسبق الشيوخ الذين وجهوا الاهتمام بالأدب في الأزهر وجهة جديدة . ولم يكن العصر حينذاك يسمح للطار أن يحرّو على تعديل برامج التعليم في الأزهر وإدخال بعض المواد الحديثة ، فقد كان الخروج على المألوف حينذاك جريمة لا تغتفر . ولكن الطار استطاع برفق أن يدنخل فن الكتابة في دروسه بالأزهر ، وفن الكتابة — كما يقول هو — يجرى من العلوم الأدبية مجرى الثمرة من الدوح ^(١) . وفتح بيته لرفاعة الطهطاوى ليتلقى عنه دروساً في الأدب والتاريخ ^(٢) والجغرافية .

وإذا كان الطار لم يعط في الأزهر دروساً في الأدب والشعر ، مخافة أن يصدم شعور قوم كانوا ينفرون من أمثال هذه الفنون التي كانوا يعدونها بدعة ، فإنه استطاع برفق ولباقة كذلك أن يوعز إلى تلميذه الشيخ محمد عياد الطنطاوى ، المدرس الشاب الحديث عهد بالتدريس في الأزهر ، بأن يعطى دروساً في الشرح والتعليق على كتب الشعر والأدب . ولعل الطار بهذا الإيحاء والإيعاز إلى تلميذه الطمّوح كان يحس نبض الشيوخ ، ويحس نبض المحافظين على وجه العموم . وبفضل هذا التوجيه الأدبي من الشيخ حسن الطار إلى تلميذه محمد عياد الطنطاوى استطاع الإصلاح في الأزهر أن يسجل أول حركة في الدراسات الأدبية والشعرية في محسن الجامع الأزهر :

والواقع أن الأزهريين فوجئوا حين رأوا شيخاً شاباً — هو عياد الطنطاوى — يترك التدريس في كتب الحديث والفقه ، ويختار للتدريس ميداناً آخر لم يألفه الشيوخ ، وهو تدريس مقامات الحريري ، وشرحها ، والتعليق عليها ، وقراءة

(١) الإنشاء — حسن الطار — ص ٢ .

(٢) حلية الزمن : لصالح مجدى بك ص ٢٥ .

شرح الزوزنى للمعلقات (١) .

.. على أن هذه القراءات الأدبية الشعرية قد سبقتها دروس في فن الإنشاء والكتابة كان يلقيها الشيخ حسن العطار نفسه على طلبته بالأزهر . وفي هذه الدروس بعد بهم الشيخ عن مسائل الفقه ومناقشاته واعتراضاته إلى حكايات وطرائف ومحاضرات ، ونوادير أدبية ، وشواهد شعرية ، ولطائف فقرات ، وما يتبع ذلك من كنايات وأمثال . وقد كان كثير من الطلاب يفرون من دروس الفقه الجامدة ، ودراسات الأصول الجافة إلى حلقات العطار التي كانت أشبه بالندوة الأدبية المتشعبة الأطراف .

ولقد فتح العطار عيون الأزهرين على ذخائر من التراث الأدبي عند العرب . ففي خلال بعض حواشيه ، حتى في المنطق والنحو ، كان يهدي طلابه إلى مثل كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصبهاني وإلى ما فيه من روائع الشعر الذي يعد ميراث العرب الباقي . وتراه في حاشيته على شرح الخيصى يشيد بالشعر ثم يتطرق إلى التوصية بقراءة « الأغاني » قائلا في نص عبارته : (وشجعان العرب في الحروب تتمثل بالأشعار ، وتلقى نفسها عند ذلك في مهالك الأخطار ، فلا تبالى بمواقع السيوف ، ولا بوارق الخوف ، وفي جميع ما ذكرناه حكايات ونوادير شحنت بها الكتب والدفاتر ، ومن أراد الاطلاع على غرائب هذا الباب فليطالع كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ، وهو كتاب جليل كبير يحتوي على عشرين مجلدة ...) (٢) .

أوليت كيف انقطع عهد الناس بالأدب والشعر خلال ثلاثة قرون من الحكم التركي : وضاعت معرفتهم — حتى الشيوخ والعلماء منهم — بكتاب مثل كتاب الأغاني ، ثم يحيى الشيخ حسن العطار فينادى بأعلى صوته على هذا الكتاب وعلى أضراسه من كتب الأدب والشعر التي ترهف الإحساس ، وتلطف الشعور ؟ .

وحين كان الجبرقي المؤرخ وصديق العطار يرى الاشتغال بمسائل الفقه

(١) حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي — ص ٣١ .

(٢) حاشية العطار على شرح الخيصى ص ٢٥٨ .

وعلمو الشرع أبقي ثواباً ، وأجسن مآباً ، كان العطار يرد عليه : ولماذا ؟ ما دام الدين مصوناً متبوعاً ؟

الحق أن العطار كان موجهاً إلى الدراسات الأدبية بإيحاءاته إلى تلميذه محمد عباد الطنطاوى المدرس بالأزهر أولاً ، وبدروسه فى الإنشاء والكتابة الأدبية ثانياً ، وبالروح العامة التى خلعها على مجالس الأدب فى أوائل القرن الماضى ثالثاً ، وهى روح أضفت عليه من صفات الشعر والأدب فوق ما أضفته عليه من صفات العلم والفقه . حتى ليعد أحد ثلاثة كانوا أشهر شعراء وقتهم فى أول القرن التاسع عشر ، وهم : السيد إسماعيل الحشاش ، وحسن العطار ، والسيد على الدرويش . ومن عجب أن هذا العالم الأزهرى الأصولى الفقيه لا يعد فى علماء ذلك العصر قنبر ما يعد فى شعرائه وأدبائه .

إن مشيخة الأزهر لم تصنع من حسن العطار شيئاً غير العمل الرسمى الرتيب ، أما الشعر والأدب فقد صنعا من العطار كل شيء . . . كما صنع تلميذه الطنطاوى من الأدب حلقات جديدة فى الأزهر لم يكن له بها عهد من قبل . . . ويكفى العطار فضلاً أنه هو الذى روجه تلميذه رفاعة الطهطاوى إلى دراسة الأدب ، ففتح ذلك ذهنه إلى البحث والتفكير ، وأعد له رسالة القيام بالنهضة الحديثة التى توليها رفاعة على أحسن الوجوه . . .

٥ - المنبه لحركة الإصلاح

لعل صوت حسن العطار هو أول الأصوات العربية التى انطلقت من داخل الأزهر منادية بتغيير كتيبه وإصلاح برامجهِ وإدخال العلوم الحديثة فيه . وقد سبقه إلى ذلك صوت مسلم غير عربى هو المرحوم أحمد « باشا » كور الوالى العثمانى بمصر ، الذى شعر بنقص التعليم فى الأزهر ، واهتمام أهله بتحصيل الفقه والمعقول وعلوم الوسائل كالنحو والصرف والمنطق ، ونبتهم لعلوم المقاصد - كالعلوم الرياضية - مع ضرورتها لتقدم الأمم وقوتها . ولا يلام أحمد « باشا »

كور على أنه اكتفى بإرسال هذه الملاحظة على علوم الأزهر ، ثم اكتفى آخر الأمر بالتقائه بالعالم الرياضي الفلكي الشيخ حسن الجبرتي يتذاكر معه علوم الرياضة والفلك ويتعلم معه عملياً صنع المزاويل . . . فما كان ينتظر من مثل هذا الولي التركي أن يفعل للأزهر أكثر من هذا ، وخصوصاً أن اهتماماته بالعلوم الرياضية كانت اهتمامات شخصية لم ترتفع إلى مستوى المصلحة العامة للمسلمين . ولا يلام كذلك الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الجامع الأزهر في عهد ولاية أحمد « باشا » كور على مصر لإهماله أمر إصلاح الأزهر ونكوصه من إدخال بعض العلوم العصرية فيه ، فإن الجور لم يكن مهياً في ذلك الحين لإخراج فكرة الإصلاح إلى حيز التنفيذ .

وقد حدثت حادثة أحمد « باشا » مع شيخ الأزهر الشبراوي قبل مولد الشيخ حسن العطار بعشرين عاماً أو تزيد قليلاً . ولا شك أنها كانت تتردد سيرتها بين جنبات الأزهر لما فيها من طرافة وغرابة . ولا شك أن العطار سمع بها وهو طالب بالأزهر أو وهو مدرس فيه . ولا شك أنها أثرت في نفسه ، كما أثر فيها اتصاله بالفرنسيين وإطلاعه على كتبهم ، وآلات معاملهم ، وأجهزة أربادهم . ومن هنا قامت في نفسه المتحركة المتطلعة عوامل التنبه نحو إصلاح الأزهر ، بل إصلاح البلاد جملة . وما أصدق على مبارك وهو يتحدث عن حسن العطار قائلاً : (واتصل بناس من الفرنسية ، فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة في بلادهم ، ويفيدهم اللغة العربية ، ويقول : إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها . . . ويتعجب مما وصلت إليه تلك الأمة — يعني الفرنسية — من المعارف والعلوم ، وكثرة كتبهم وتحريرها ، وتقريبها لطرق الاستفادة) . (١)

وما تحمل عبارة رائد من الإيمان والقوة والتطلع مثل ما تحمله عبارة حسن العطار التي يقول فيها « إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من

المعارف ما ليس فيها . ولقد كان الرجل أشجع الشيوخ بل أشجع المصريين جميعاً حين نادى بهذه العبارة التي انتبه لها الوالى محمد على حين ألقت إليه الأقدار حكم البلاد . ولا شك أن محمد على كان يسير على ضوء هذه العبارة فلما أحدثه بمصر من نهضة تعليمية ، وفيما استحدثه من نظام البعثات التعليمية التي أوفدها إلى الخارج — وخاصة فرنسا — حتى يساعد أعضاؤها — حين إتمام دراساتهم هناك — على (تغيير أحوال البلاد ، وتجديد المعارف التي ليست فيها) وفقاً لتوجيهات حسن العطار ورغباته في إصلاح البلاد .

وإذا كان حسن العطار لم يوفق في إصلاح الأزهر وبرامجه وخطط الداسة فيه كما كان يريد ، فإنه قد رزق حظاً كبيراً من التوفيق في الدعوة إلى إصلاح التعليم بالبلاد كلها ، فالمدارس العالية الفنية التي أنشئت بمصر في ذلك العهد — كالمهندسة والطب والصيدلة والألسن — هي الاستجابة الحقيقية لدعوة حسن العطار وتطلعاته ومناذاته بمحتمية تغيير الأحوال في البلاد . والكتب التي ترجمت بالمئات في عصر محمد على هي الصدى الحق لأمنية حسن العطار حين رأى كتب الفرنسيين في الرياضة والعلوم والآداب . وإذا كان رفاعة الطهطاوى صاحب فضل كبير ويد طولى في حركة ترجمة الكتب في عصر محمد على ، فإنه بلا شك قد تأثر في هذا بأراء شيخه العطار ، وسمع منه قوله : (ومن سمع به همته إلى الاطلاع على غرائب المؤلفات ، وعجائب المصنفات ، انكشفت له حقائق كثير من دقائق العلوم ، وتزهت فكرته إن كانت سليمة في رياض الفهوم)^(١) .

والعلوم التي يقصدها العطار ليست علوم الشريعة وعلوم الأزهر التي فقد الرجل ثقته بها ، وإنما هي علوم الفرنسيين التي شاهدها هو والجبرتي وغيرهما من العلماء في وقت الحملة الفرنسية . ثم وافته الفرصة بأن يؤكد لمحمد على ضرورة إرسال البعثات العلمية في طلبها ، ولم يكتف بهذا بل أوصى الوالى محمد على بأن

يعين لإمامة أعضاء البعثات في باريس تلميذه وصفيه رفاعة الطهطاوى ، الذى عين ناظراً لمدرسة التاريخ والجغرافية التى أنشئت سنة ١٢٥٠ هـ ، فناظرراً لمدرسة الألسن التى أنشئت بعد ذلك بعام واحد^(١) .

ولابد هنا من الإشارة إلى أن مطامح حسن العطا نحو التقدم العلمى والإصلاح بمصر لم تكن تنبؤات كما يذكر أحد المؤرخين المعاصرين^(٢) . وإنما كانت توجيهاً وتنبهات . وفرق كبير بين التنبؤ والتنبه ، فإن التنبه يدل على الإيجابية من صاحبه . ولم يقصر العطار عن أن يكون إيجابياً في دعوته . فحين عجز عن تدريس كتب العلم الحديث في الأزهر كان يختص نقرأ من تلاميذه الأذنين ليقراً لهم كتب التاريخ والجغرافية والأدب وهى محظورة في الأزهر . ويؤكد لنا هذه الحقيقة مرة أخرى ما نصادفه في كلام على مبارك عن رفاعة الطهطاوى حيث يقول : (وكان له - رحمه الله - منزلة خاصة عند الشيخ حسن العطا ، فكان يشترك معه في الاطلاع على الكتب الغربية التى لم تتداولها أيدي علماء الأزهر)^(٣) .

والذين ينسبون كثيراً من الفضل إلى محمد على بما استحدثه من نظام البعثات العلمية إلى أوروبا على غير مثال سبق في الحكومات الشرقية ، ويزعمون له العبقرية في هذا الصنيع : ينسون فضل الشيخ حسن العطار في توجيهه محمد على إلى هذا السبيل . فقد كان مقرباً منه ، وكان الوالى يثق فيه : ويطمئن إليه ، ولا شك أنه سمع منه كثيراً ترديده لنغمة تجديد المعارف وتغيير أحوال البلاد ، وقوة المعرفة الفرنسية وغازاتها ، فالتقط محمد على بذكائه هذه الفكرة وحورها بأن جعل الطلاب المصريين ينتقلون بمحملتهم إلى ديار العلم بأوروبا - وخاصة فرنسا - ليرتشفوا العلم من مناهله .

وإذا كانت الوثائق الرسمية تغفل دائماً فضل أصحاب الفضل من غير الحكام،

(١) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد على ص ٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٢١ .

(٣) الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٥٤ .

وتحججه حتى تفسح المجال لظهور الولاة والحاكين ، فإن دلائل الأحوال ، وشواهد الأقوال تدل على أن فضل الشيخ حسن العطار في هذا السبيل لا يتحججه نكران ، ولا يطمسه نسيان . . .

٦ - منهج في التأليف

يمتاز الشيخ حسن العطار بمنهج في التأليف يبدو واضحاً في كتبه الكثيرة التي كان أكثرها حواشي وشروحاً وتعليقات على كتب أزهرية مشهورة متداولة بين أيدي الطلاب . فما تميز به الشيخ هذه الدقة في التعريفات ، بل الدقة في كل عبارة يقوها . ولعل هذه الدقة جاءت من عقلية المنطقية المنظمة التي ظهرت في اهتماماته بشروحه على كتب المنطق وحواشيه عليها ، وخاصة حاشيته على شرح التهذيب ، والتهذيب هو المختصر الذي ألفه العلامة سعد الدين التفتازاني في المنطق . ففي حواشيه وتعليقاته الثمينة نراه واقفاً للمؤلفين الأصليين بالمرصاد ، يصحح أوهام عباراتهم ، ويحدد معاني ألفاظهم تحديداً دقيقاً . فإذا قال النحوي الشيخ خالد الأزهرى مثلاً " أن (الألف) من الحلق ، عقب عليه العطار قائلاً " إن هذا القول فيه تسميح ، لأن الألف من الجوف . . . وإذا قال الشيخ خالد إن اسم الفعل من أجزاء الكلام التي يتركب منها ، وهي الاسم ، والفعل ، والحرف ، استدرك عليه العطار موضحاً بأن اسم الفعل قد يكون ماضياً ، مثل هيات بمعنى : بعد ، ومضارعاً ، مثل : أف بمعنى : أتوجع ، واسم فعل أمر ، مثل : صه : بمعنى : اسكت (١) .

ويميل العطار فوق دقة التعريف إلى النظرة الموسوعية في مصنفاته : أو إلى الشمول والإحاطة في المسائل ، بدلاً من الاختصار والاختصار . فإذا قال نحوي بأن التنوين أربعة أقسام : تنوين التثنية ، وتنوين التذكير ، وتنوين المقابلة : وتنوين العوض — عقب عليه العطار قائلاً بأن (أقسام التنوين عشرة : ونحو

(١) حاشية العطار على شرح الأزهرية ١٤ - ١٥ .

نعم لك البقية إجمالاً...» ثم يأخذ في حصر بقية أقسام التنوين^(١) .

وإذا ذكر أحد النحاة اسم (أحمد) على أنه علم ممنوع من الصرف لم يكتف الشيخ حسن العطار بهذا بل يزيد في التعريف فيقول إن اسم أحمد لم يتسم به أحد قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، وأما « محمد » فقد تسمى به قبله جماعة قيل إن عددهم أربعة عشر ، أو خمسة عشر^(٢) . فهو هنا لا يحصر نفسه في دائرة النحو والعلل النحوية ، بل ينطلق إلى معارف من التاريخ والأدب وغيرها .

ولا يقف العطار في مصنفاته وحواشيه وشروحه عند حد التقرير والتفسير ، ولكنه يتجاوز ذلك إلى التعقيب على المؤلفين وتصويبه لهم . ففي المنطق إذا أهمل مؤلف مثلاً لفظة « فقط » استدرك العطار عليه منادياً بضرورة إضافة هذه الكلمة حتى يكون مفهوم الجملة كلها أدق^(٣) . . . وتراه يناقش العلماء في نصوص عباراتهم بما يجعلها أقرب إلى الدقة التامة . كتناقشته لشيخ الإسلام زكريا الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٥ هـ في شرحه لإيساغوجي في المنطق^(٤) . وهو في حواشيه لا يسكت على الأخطاء النحوية واللغوية التي قد يقع فيها المصنفون سمواً أو لبعض الاعتبارات . فإذا قال شارح التهذيب في المنطق بأن (القضايا الموجهة التي يبحث عنها وعن أحكامها من العكس والتناقض خمسة عشر . . .) وقف له حسن العطار بالمرصاد يعلق على صيغة العدد هنا قائلاً : (لا ينبغي أن المعلوم هنا مؤنث ، وهو « قضية » ، فكان يجب تجريد « خمسة » من التاء ، لأنها تجري على خلاف القياس ، ويجب إلحاق التاء لعشر لأنها عند التركيب تجري على القياس . . .)^(٥) ثم يعود العطار فيلتمس تحليلاً لهذا الخطأ في صيغة العدد قائلاً : (وقد يوجه إلحاق التاء بخمسة هنا ، بأن المعلوم محذوف) .

(١) المصدر نفسه ص ١٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٧ .

(٣) حاشية العطار على شرح التهذيب في المنطق - ص ٨٦ .

(٤) المصدر نفسه ص ١١٢ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٦٤ .

وهو الخامس يجد له العطار مستنداً من أقوال النحاة . . .

وبلغت النظر في مؤلفات العطار ميله إلى الإطالة في كثير من تعليقاته . وهو لا يرى من هذه الإطالة إلا إلى توضيح المعنى في ذهن قارئه . وقد يدرك هو نفسه أنه إطال ، وأنه ربما أسأم القارئ وأضجره ، فتراه يقدم من الأعدار والاعتدال ما يدل على رقة شعوره . كما فعل في تعليقه على إحدى المقولات في المنطق ، ولم الشوارد الكثيرة حولها . فاعتذر من ذلك قائلاً : (وقد نظمنا في هذه المقولة الشوارد الكثيرة الفوائد . فلا تسأم من الإطالة ، ولا تتشك الملالة :)^(١)

أما « الاستطراد » فهو ظاهرة تلفت النظر في مصنفات العطار ، والواقع أن الرجل كان موسوعى الذهن ، متعدد جوانب الثقافة . فتراه يستطرّد في خلال الكلام من موضوع إلى موضوع ، ولكنه استطراد لا يمل قارئه ، بل قد يكون فيه فائدة ومتاع عظيم . ولا نسوق هنا غير نموذج واحد من عشرات النماذج التي صادفتنا في كتبه . فلما فرغ من التعقيب على باب « التصورات » في المنطق ، وانتقل إلى باب « التصديقات » ختم البحث بسرد طائفة من الأخبار والحوادث التي وقعت بمصر . ولم يكن إتيانه بهذه الحوادث حشواً أو لغواً ، ولكنه رأى أن يمهّد لنفسه العذر حين أسكته الحوادث عن متابعة حواشيه وتقاريره على كتاب المنطق . فإنه بعد أن سرد أنباء المطر الشديد ، والحريق الهائل بالقلعة ، والطاعون بمصر ، ختم الكلام بقوله : (واجتماع هذه الأسباب هو الذى أوجب لي الوقوف عند هذا القدر ، فإن انجلى هذا الحادث ، وكان في العمر بقية ، شرعنا في القسم الثاني مستمدين الإعانة من الله ، وإن كنا من الداهيين مع هذا الوفد : فعسى أن يأتى بعدنا من يوفقه الله للإتمام . . .)^(٢) .

وقد تنبه لمثل هذا الاستطراد المحروم الشيخ عبد المتعال الصعدي وهو يكشف عن استطراد العطار في بعض المواضع من حاشيته على (شرح جمع

(١) المصدر نفسه ص ١٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٨ .

الجوامع) إلى لوم أهل الأزهر على إعراضهم عن كتب المتقدمين^(١) . . . وإلى مدح كتب الفرنسيين والأجانب المترجمة إلى اللغة العربية^(٢) .

ويمتاز حسن العطار في تأليفه بالتحقيق ومقابلة النسخ الخطية من الكتاب الواحد ؛ وهو منهج سليم في التأليف ، فقد رجع بعض العلماء المناطقة إلى نسخ من كتاب عبد الحكيم السيالكوتى^(٣) في المنطق ، وهو حاشيته على شرح القطب الرازى على الشمسية ، ونقلوا بعض عباراتها محرفة بما ترتب عليه خطأ في فهمهم . ولكن العطار فطن إلى هذا الاضطراب في النسخ ، ويحمد الله على أن وفقه إلى الحصول على نسخة خطية صحيحة جداً ، ونذعه هنا يقول بنص عبارته : (. . وأصل نسخ عبد الحكيم كلها محرفة ، فنقلها - يعنى بعض العلماء - بما فيها من التحريف والتصحيف . وقد من الله على الفقير بنسخة من عبد الحكيم صحيحة جداً ، قدم بها رجل فاضل من بخارى ، فصحيحنا عليها نسخة مصرية ، وعليها اعتمدت في النقل . . .)^(٤)

ومن مقابلات العطار الدكية لنسخ المخطوطات ما لاحظته على بعض نسخ « التهذيب » للعلامة التفتازانى من وجود نقص في بعضها ، وزيادة في بعضها الآخر . فحين جاء « الخبيصى » لشرح التهذيب لم يتناول الموضوع الناقص لأنه بالطبع - ليس في نسخته - فلاحظ الشيخ حسن العطار هذا ، واستنتج أن النسخة التى وقعت للشارح ليست من النسخ التى ألحق بها المؤلف الأصلى بعض الزيادات والإضافات ، كما رجح الاحتمال بأن تكون هذه الزيادات ليست من عمل المؤلف الأصلى : التفتازانى ، ولكنها (من إلحاق البعض)^(٥) .

(١) تاريخ الإصلاح في الأزهر - لعبد المتعال الصمدي ص ١٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠ .

(٣) هو عبد الحكيم بن شمس الدين الهنجاوى من علماء المسلمين في القرن الحادى عشر الهجرى . اشتغل بالمنطق ، والبلاغة والعقائد ، وله حاشية على تفسير البيضاوى . توفى سنة ١٠٦٧ هـ .

(٤) حاشية العطار على شرح الخبيصى - ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٥) المصدر نفسه ص ٢٤٥ .

وفى سبيل التحقيق وتوثيق المخطوطات والمقابلة بين النسخ ومعارضة بعضها ببعض كان العطار لا يضمن بمال ولا جهد . فمن أجل حاشيته فى المنطق اضطر إلى الاطلاع على مخطوطات ثمينة تتصل بالموضوع ، فحصل — مثلاً — على نسخة خطية من كتاب ^(١) « شرح سلم العلوم » ، والسلم كتاب فى المنطق لـ نجيب الله البهارى المتوفى سنة ١١١٩ هـ . ومن شرح سلمه العلامة الهندى الكنى عبد العلى محمد بن نظام الدين المتوفى سنة ١٢٢٥ هـ .

٧ - الإجازات العلمية وتقاريف الكتب

عقدنا فى كتابنا عن « المقرئ صاحب نفع الطيب » فصلاً — فظنه مفيداً — عن الإجازات العلمية وطريقة منحها من العلماء ، يرجع إليه من شاء من القراء . وقد ظلت الإجازات من الشيوخ إلى تلاميذهم جارية إلى عصر الشيخ حسن العطار ، بل بعد عصره بعشرات من السنين . ولا نزال نذكر الإجازة التى كتبها الشيخ محمد الأشمونى لتلميذه الشيخ حفى ناصف سنة ١٣١٦ هـ — سنة ١٨٩٨ م. ^(٢) . ولا كانت الإجازات تحتاج — من وجهة نظر الكتابة الفنية — إلى مراسم وقواعد وأصول لكتابتها والتفنن فيها ، فقد رأى حسن العطار أن يصنع نموذجاً منها فى كتابه « الإنشاء » ^(٣) حتى ينسج العلماء والأساتذة على منواله حين يمنحون الإجازات لتلاميذهم !

على أن العطار فى كتابه « الإنشاء » قد سجل بعض إجازاته الواقعية — لا النموذجية — التى كتبها لبعض طلبته . كلإجازته إلى سيدى العربى الدمناى كاتب سلطان المغرب ، الذى كتب إلى شيخه العطار يستدعيه ، أو يطلب منه

(١) المصدر نفسه ص ٢٦٢ .

(٢) ترى صورة من هذه الإجازة فى كتاب « الشيخ الحسين بن أحمد المرصى » — المرحوم الأستاذ محمد عبد الجواد — صفحة ٣٦ .

(٣) إنشاء عطار ص ٥٣ .

أن يمنحه إجازة ، ففعل ! ونسجل هنا - من باب التاريخ - كتاب الاستدعاء الذى بعثه الدمنائى المغربى إلى الشيخ حسن العطار ، وفيه يقول : (يا رب الدكاء الرائع ، وحامل العلوم التى سد بها الدرائع ، والمطيل بلسانه فى حفظ علوم الشرائع ، المستوفى على المعرفة والفقه والفرائض ، ومذلل جناح الأصول إذا لم يذلها رائف ، وأستاذ العربية والحساب ، وخائف بجر المنطق الذى اكتسب به الإدراك أى اكتساب ، ملاك الأوطار ، أبا على السيد حسن بن محمد العطار ، نداء مستجيز ، بالاستدعاء الوجيز . ذا فضلكم وما خولكم الله من إحسان ، لا ينى به قلم ولا لسان . . .) (١) . وقد استجاب العطار لاستدعاء الرجل بالإجازة . ولم يكتف بأن تكون إجازة نثرية ، بل توجهها بقصيدة من الشعر يقول فيها :

طلبت إجازة منى ... وإلى لحافى الرجل فى هذه المقازة
ومالى إن منعتكها اقتدار ! ومالى إن منحتكها إجازة !
وكيف أجوز فى ميدان قوم حقيقة فضلهم أرجو مجازة ؟

وقد حفظ لنا مؤرخ القرن الثالث عشر الهجرى الشيخ عبد الرزاق البيطار صورة الإجازة التى كتبها الشيخ حسن العطار لوالده الشيخ حسن البيطار حينما كان المترجم له نازلاً بدمشق بعد رحلة إلى بلاد ترقية وألبانيا ، وتعد هذه الإجازة وثيقة تاريخية هامة ، ومصدراً من مصادر الترجمة للعطار ، لاشتمالها على أسماء شيوخ العطار أولاً ، ولاحتوائها على أسماء مؤلفاته التى كانت له حتى سنة ١٨١٥ م ، وهو العام الذى عاد فيه إلى مصر بعد رحلاته الطويلة ، وغيبته المتصلة .

وتدلنا استجابة العطار السريعة لكل من طلب منه إجازة علمية على روح هذا الرجل فى تشجيع الطلاب على طلب العلم وإقبالهم عليه . فإنه بهذا الصنيع

يجب التلاميذ في الاستزادة من العلم ، ولا يصدهم عن قصد موارده .
وهذا التشجيع بالإجازات يناصره تشجيع آخر من العطار بتقريضه للكتب .
وإذا كان تقريض الكتب - بل تقريض القصائد - « تقليعة » العصر في العصر
التركي كله ، بل كان بدعة من بدعه العجيبة ، فإن الشيخ حسن العطار لم يغال
فيه إلى الحد المردول المستقل . وقد حفظ لنا في كتابه في « الإنشاء » نصوص
ثلاثة تقاريط ، أولها على كتاب ألفه شيخ الإسلام التركي عطاء الله أفندي يرد به
عقائد قوم مبطلين ، وثانيها تقريضه على ترجمة ألفية ابن مالك بالتركية التي قام
بها خيرت أفندي رئيس الكتاب في دار السلطنة العثمانية في عصره ، وثالثها
تقريضه (على مؤلف لبعض الموالى الكرام ، ألفه في غلطات الأنام ، وهو حفيد
أفندي . . .)^(١)

وليس لهذه التقريضات قيمة أدبية ؛ فقد انتهى عهدا ، وبطلت بدعتها .
ولم تكن في الحق أكثر من مجاملة بين الأدباء والعلماء ، ولم يقصد بها أن تكون
ذات قيمة نقدية للعلم والأدب . والحق أيضاً أن العطار لم يسرف فيها ولا في
استعمالها . وإن كان تلميذه الشاعر محمد شهاب الدين قد غالى في استعمالها
شعراً مغالاة عظيمة ، حتى لقد جعل قسماً كبيراً من ديوانه^(٢) لهذه التقاريط
التي يعد بها أكبر المقرطين . ومن تقريضات الشاعر شهاب الدين تقريضه لكتاب
« القاموس المحيط » حين تم طبعه بالقاهرة سنة ١٢٧٢ هـ .

ويذكرنا تقريض الشهاب لطبع القاموس بتقريض الشيخ محمد سعيد السويدي
البغدادى لشرح القاموس المحيط للعلامة مرتضى الزبيدي سنة ١٢٩٤ هـ .
ولن نطيل الحديث عن هذه التقاريط النثرية والشعرية التي لن يعدم القارئ
الاطلاع عليها في مواضع متفرقة من تاريخ الجهرى ، أو في دواوين شعراء ذلك
العصر ، أو في كتاب « الآثار الفكرية » الذي أفرد فيه جامعه : أمين فكرى
« باشا » باباً : أصلاً للتقاريط النثرية التي كتبها والده الأديب الشاعر الناصر عبد الله

(١) المصدر نفسه صفحات ٥٨ ، ٦١ ، ٦٦ .

(٢) انظر ديوان شهاب الدين .

« باشا » فكرى . ولكن الذى نستطيع أن نقوله بحق إن الشيخ حسن العطار لم يسرف فى هذه التقاريظ ، بل التزم فيها حد الاعتدال والقصد ، ولعله رآها كما كانت فى عهده وسيلة للمجاملة وتعارض الثناء بين العلماء والأدباء ، فلم يلجأ إليها إلا بحد الاعتدال . . .

٨ - آثار العطار ومؤلفاته

لا نجد أوثق من الشخص المترجم نفسه ، حين يعدد لنا بنفسه وبقلمه آثاره ومصنفاته . فإنه هو المصدر الذى لا يتطرق إليه شك . ولكن عيب هذه الطريقة أن المترجم له قد يكون سجل مؤلفاته قبل نهاية أجله بزمان طويل أو قصير . وهنا يكون سجل مؤلفاته ناقصاً بقدر ما كتبه بعد ذلك من كتب ومصنفات ، كما نجد ذلك عند العلامة المؤرخ السيوطى حين سجل فى كتابه : « حسن المحاضرة » ثبناً بأسماء كتبه التى ألفها ، وهو يترجم لنفسه ترجمة ذاتية - أو شخصية (١) - فقد كتب الترجمة وسجل مصنفاته قبل وفاته بفترة صنف فيها كتباً جديدة خلا منها ذلك الثبت المهم .

والذى حدث عند السيوطى فى القرن العاشر الهجرى ، حدث عند حسن العطار فى القرن الثانى عشر . فإنه فى إجازته التى كتبها للشيخ حسن البيطار ختمها بذكر مصنفاته التى كانت إلى ذلك التاريخ الذى كتب الإجازة فيه وهو سنة ١٨١٥ م . فسقطت بالطبع الكتب التى ألفها بعد ذلك . ويذكر لنا العطار أسماء مؤلفاته على هذا النحو :

- ١ - حاشية شرح قواعد الإعراب .
- ٢ - حاشية الأزهرية ، فى النحو
- ٣ - حاشية العصام على الوضعية للإيجى

(١) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة - السيوطى - ج ١ ص ١٨٨ .

٤ - حاشية شرح إيساغوجي لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري في المنطق

٥ - حاشية النخبة

٦ - حاشية السمرقندية لأبي القاسم السمرقندي في الاستعارة

٧ - حاشية السلم لمحَب الله البهاري من علماء القرن الثاني عشر الهجري

٨ - حاشيتان على ولدية المرعشي في آداب البحث

٩ - شرح المنظومة الوضعية

١٠ - شرح المنظومة التي في آداب البحث

١١ - شرح منظومة التشريح

١٢ - شرح نزهة الشيخ داود في الطب

١٣ - حاشية شرح أشكال التأسيس في علم الهندسة

١٤ - حاشية المغني في النحو . وكان وهو بدمشق يدعو الله أن يتمها

ويحتم حسن العطار هذا الثبوت بقوله : (ولنا رسائل عديدة في مسائل متفرقة من علم الحكمة والكلام وغير ذلك) (١).

أما الكتب التي ذكرها على مبارك في خلال ترجمته للعطار ، فلم يذكرها على سبيل الحصر ، بل قال إن له تأليف عديدة منها (١) حاشيته على جمع الجوامع في نحو مجلدين (٢) وحاشية على الأزهرية في النحو (٣) وحاشية على مقولات الشيخ السجاعي (٤) وحاشية على السمرقندية في البلاغة . ورسالة في كيفية العمل بالأسطرلاب والرعين المقنطر والحبيب والبساط ، ورسائل في الرمل والزاوية والطب والتشريح وغير ذلك .

وذكر له المرحوم أحمد تيمور في « فهرس الخزانة التيمورية » تسعة من الكتب لا تزيد . وليس فيها من زائد على ما عند البيطار وعلى مبارك إلا هذه الكتب : (١) رسالة في البسملة والحمدلة (٢) إنشاء الشيخ العطار (٣) حاشية العطار على كتاب التذهيب للخبیص في علم المنطق (٤) حاشية العطار على

(١) حلية البشر : لعبد الرزاق البيطار - ج ١ ص ٤٩٢ .

جمع الجوامع في أصول الفقه لتاج الدين السبكي (٥) منظومة العطار في النحو .
 وواضح أن هذه الكتب الخمسة هي مما ألفه الشيخ حسن العطار بعد عودته من
 رحلته إلى مصر سنة ١٨١٥ .

وذكر له جرجي زيدان ستة من الكتب هي : (١) إنشاء العطار (٢) منظومة
 في النحو (٣) ديوان ابن سهل الأندلسي (٤) حاشية على شرح الأزهري
 (٥) حاشية على السمرقندية في البلاغة (٦) مظهر التقديس بذهاب دولة
 الفرنسيين ، وهو للجبرتي بالأصالة ، وفيه بعض الشعر والنثر للعطار بالمشاركة .
 وليس في الكتب التي ذكرها جرجي زيدان زيادة على ما سبق ذكره عند
 البيطار وعلى مبارك وتيمور إلا ديوان ابن سهل ومظهر التقديس .

ولم يرد في ثبت مؤلفات العطار عند هؤلاء المحققين ذكر لديوان العطار
 الذي يقول عنه الجبرتي إنه موجود ، وإن قصيدة : أنهض فقد ولت جيوش
 الظلام ، مسطورة به . وقد فصلنا الكلام عن ديوان العطار قبل هذا في الفصل
 الخاص بالعطار الشاعر ، فلن نعيد القول بالتكرار فيه .

ولا بأس أن نقول هنا كلمة عن كتاب « مظهر التقديس » الذي سجله
 جرجي زيدان في مؤلفات العطار ، ثم صحح الموقت على التو ، فقال (إنه
 للجبرتي على ما يظهر وفيه جانب من منظوم العطار ومثوره) ^(١) . فالأستاذ
 خليل شيبوب يصحح الوضع على طريقته بقوله : (ولا شك أن هذين البيتين
 من نظم الشيخ حسن العطار الذي ضمن هذا الكتاب فصلاً من إنشائه
 المسجوع ، وخاصة تعليقه على قصيدة الصيرفي التي مدح بها أحمد « باشا »
 الجزائر ، وهي ثمانون بيتاً أو تزيد ، أخرجها بحروفها ونقدها لغوياً وعروضياً) ^(٢) .
 والأستاذ محمود الشرقاوي يخلص من مقابلته بين مظهر التقديس وما كتبه
 المؤرخ الجبرتي في تاريخه المسمى « عجائب الآثار » ، عن دخول الفرنسيين
 مصر وإقامتهم فيها ، وخروجهم منها ، بالنتائج السليمة الآتية ، وهي أن الجبرتي

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ - ص ٢٣٢ .

(٢) عبد الرحمن الجبرتي - تحليل شيبوب - سلسلة اقرأ ، ص ٨٨ .

في « مظهر التقديس » (يذكر اسم الشيخ حسن العطار على أنه شريك في تأليف الكتاب ، فهو يقول في أوله : إنه ألف كتابه وضم إليه ما كتبه الشيخ حسن العطار من النثر والشعر . ثم يقول عند اختياره اسم الكتاب : « ومميناه » مظهر التقديس . وهو عند ما ذكر ذلك عن تاريخه قال « سميت » عجائب الآثار . وعند ما يورد بعض الشعر يقول : إنه « لصاحبنا الآتي ذكره » أو « لصاحبنا السابق ذكره » بعد أن ذكر اسم الشيخ العطار ^(١) .

والحق أن هذه الملاحظات الدكية والتتائج الواحية جديرة بالاعتبار ، لأنها تصبح الرأي في كتاب « مظهر التقديس » على أوضح الوجوه .

(١) مصر في القرن الثامن عشر : لعميد الفرقاني - ج ١ - ص ٣٦ .

الفصل الرابع

منتخبات من آثار حسن العطار

١ - حسن العطار الشاعر

١ - الغزل :

رسالة عاشق لمعشوق

نظم الشاعر حسن العطار الأبيات التالية ، وعنوانها بعنوان : رسالة عاشق لمعشوق ، ونشرها في كتابه (الإنشاء) :

أَعْنِ المحبُّ ثَنَّاكَ عنه وجيئه أم قد دعاك إلى البعاد رقيبُهُ ؟^(١)
هَجَرَ الكرى لما هجرتَ وواصلتُ ه شجوتُهُ ، وازداد فيك نحيبه^(٢)
لم يَجُنْ ذَنْباً في هواك وإنما قد كان بالهجران منك نصيبه
أفقرتُهُ من حسن وصلك بعدما جادت عليك دموعه ونسيبه
وتركتَهُ والفكر فيك مع النها رسميرُهُ والسهد منك منيبُهُ
لو للقا عَظفتَهُ منك شكايَةً رَقَّتْ ، وَدَمَع طافحُ^(٣) شُؤْبوبه
لرَأيتُ جِسمًا كالهِلال من الضنَى ولهيبَ قلب مقلناه تُلذيبه
صِلُهُ لتستبقي به الرِّمق الذي لولا الأمانى ما بقى موهوبه^(٤)

(١) ثَنَّاكَ عنه : صرفك عنه . والوجيب غفنان القلب واضطرابه .

(٢) الكرى النور : والنحيب رفع الصوت بالبكاء .

(٣) عَظفتَهُ أى أمالته تحريك . والشُؤْبوب الدفعة من المطر ، وقد شبه به النمع لغزارته .

(٤) صله أى أمد وصله والقرب منه ولا تقطع مودته . والريق بقية الحياة .

أَلَزَمْتُ نَفْسِي الصَّبْرَ فَبِكَ تَسَامِيًا وَالصَّبْرُ أَصْعَبُ مَا يُقَادُ نَجِيهًا (١)
وَبَلِيَّتُ فَبِكَ بِكُلِّ لَاحٍ لَوْ تَبَدَّدُ ي نَحْوَ طَوْدٍ أَثْقَلَتْهُ أَكْرُوْبُهُ (٢)
أَقْلَا رَثَيْتَ لِعَاشِقٍ لَعِبْتُ بِهِ أَيْدِي الْمُنَوَّى وَنَازَعْتَهُ خُطُوْبُهُ (٣)
أَنْتَ النِّعَمُ لَهُ وَمَنْ عَجَبٌ تَعَدُّ بِهِ ، وَتُمْرُضُهُ ، وَأَنْتَ طَبِيبُهُ !

إلى متى

ولحسن المطار هذه الأبيات الغزلية التي أودعها أيضاً رسالة عاشق إلى معشوق ، ونشرها في كتابه (الإنشاء) :

إلى متى تشكروا ولم تَرْتُدُّ لِي أَمَا كُنِيَ أَنْ رَقَّ لِي عُذْلِي (٤) ؟
يَا بَاخِلًا بِنَاوِصِلَ عَنْ عَاشِقٍ بَعَسَجَدَ الْأَجْفَانِ لَمْ يَبْخُلْ (٥) !
أَنْفَقْتُ فِي حَرِّ الْهَوَى عَمْرَهُ وَعَنْ أَمَانِيهِ فَلَا تَسْأَلِ !
لَمْ يَبْقَ فِي الصَّسْبِ سِوَى مَهْجَةٍ أَمْسَتْ لَتِيرَانِ الْهَوَى تَصْطَلِي (٦)
وَمَقْلَةٍ تَرَعَى نَجْوَمَ الدُّجَى شَقِيقُكَ الزَّاهِرُ عَنْهَا سَلِي (٧) !
تَبَيَّبْتُ تَبْكِي شَجْوَهَا كُلَّمَا هَاجَ بِذِكْرِكَ فَوَادَّ بَلِي

(١) التامس هو التسل بالصبر .

(٢) بليت فبك أي أصبت في حب ليالك . واللاحى هو اللام على الشيء . والطود الجبل العظيم أي أصبت في حبك بكل علول لأم ثقل كالجبل

(٣) المنوى الموت .

(٤) ترقى لى أي تبكى وتشفق على . والبذل جمع عاذل وهو اللام في الحب .

(٥) المسجد الذهب ، وصعد الأجفان كناية عن التبع .

(٦) الصب هو العاشق ذو الولع الشديد ، والمهجة القلب .

(٧) المقلة العين . وترعى أي تنظر ، والدجى الظلام . وشقيق الحبيب الزاهر هو القمر ،

فكانه شبه بالبلور . وسل فعل أمر بمعنى أسأل .

ما أطولَ الليلَ على عاشقٍ فارقٍ محبوباً عليه ولي
كأنما الصبح أتى سَطْوَةً من كافرٍ الليل فلم يَنْجُلِ (١)

سلطان الهوى

وحين عاد إبراهيم « باشا » منتصراً من حروبه في الشام مدحه الشاعر
بقصيدة ، استلها بالفزل التقليدى على طريقة قداى الشعراء ، ثم تخلص من
الفزل إلى المدح بعد ذلك . وفيها يقول :

سمهرى ينشئ أم غُصْنُ بَانٍ أم قَوَامٌ دونه صَبْرَى بَانٍ ٩ (٢)
صان بالعَسَالِ معسولَ اللَّمَى وتهاذى هادماً ما أنا بَانٍ (٣)
يا مليكَ الحسنِ رفقا بِشَجَرٍ كلما حَاوَلَ كَتَمَ الشَّجْوِ بَانٍ (٤)
مَرَجَ البحرينِ فيضاً دُمُعُهُ إذ رأى جفنيه لا يلتقيان (٥)
بِجَاءٍ ، لما جَارَ سلطانُ الهوى طالباً من عادلِ القُدِّ الأمان (٦)
رُبُّ ساقٍ ، وهو قاسٍ قلبُهُ عِطْفُهُ منذ أدار الكأسَ لان (٧)

(١) أتى أى خاف ، والسطوة هى الصولة والاحتذاء . والليل الكافر هو الذى يستر كل شيء ،
لأن الكافر أسلم منهاها السر والخب . ومعنى البيت أن الصباح كأنه غشى احتذاء وصوله من الليل
الكافر فلم يطلع . . .

(٢) السمهرى الريح الصلب ويشبه به الغيوب . وغصن البان هو غصن شجر يشبه به القوام
الفلق المرتفع . وبان الصبر أى يمد وراح .

(٣) السال الريح . واللى سمرة فى الشفة مستحسنة . وما أنا بان أى ما أنا بانه .

(٤) الشجى هو الشخص الحزين . والشجوا الحزن . وبان فى هذا البيت معنى ظهر .

(٥) مرج البحرين أى خلط ماءهما .

(٦) القد القوام ، وعادل القد هو الحبيب الذى يتنزل فيه .

(٧) عطف الرجل : جانبه . ولان عطفه كناية عن الرقة والاستجابة . ولا حظ البدع هنا ،

لأن لفظة (ساق) حين تقلبها تكون (قاس) .

أَهَيْفَ إِنْ مَاسَ تِيهَا وَرَنَا رُحْتُ مِنْهُ بَيْنَ سَيْفٍ وَسَنَانٍ^(١)
كَبَسَرَ الْقَلْبَ ، وَمَا كَانَ التَّقَى فِيهِ ، مِنْ حِينَ هَوَاهُ ، مَا كُنَّا^(٢)

أَنَا رَاضٍ

والعطار يبتان في الغزل يعلن فيهما عن نزوله على حكم الحبيب ورضاه منه
بكل ما يرضاه ، وهما :

أَنَا رَاضٍ مِنْكَ يَا كُلَّ الْمُنَى بِالَّذِي تَهَوَّى عَلَى حُكْمِ الْغَرَامِ
لَسْتُ أَبْغَى مِنْ زِمَائِي حَاجَةً غَيْرَ أَنْ تَحْبِيَ سَعِيداً ، وَالسَّلَامَ

ب - الوصف :

بركة الأزبكية

كانت الأزبكية في عهد حسن العطار قبيل مجيء الفرنسيين إلى مصر
مسكن الأمراء ، وموطن الكبراء ، وحى الرؤساء . تملؤها القصور الشاهقة ،
وتحيط بها البساتين الوارقة الظلال . وقد وصفها الشاعر بهذه الأبيات : -
بِالْأَزْبَكِيَّةِ طَابَتْ لِي مَسَرَّاتٌ وَلَدُّ لِي مِنْ بَدِيعِ الْعَيْشِ أَوْقَاتُ
حَيْثُ الْمِيَاهُ بِهَا وَالْفُلُكُ مَابِحَةٌ كَأَنَّهَا الزُّهْرُ تَحْوِيهَا السَّمَوَاتُ^(٣)

(١) الأهيف الرقيق الحصر . وماس أي تمايل ، وتيا أي حبياً واحتمالاً . رنا أي نظر ،
والسيف هنا كناية عن جفون المحبوب ، والسنان كناية عن قوامه الذي يشبه الريح .

(٢) لاحظ البديع في هذا البيت ، فكلمة ساكتان لها معنى قريب وهو المعنى المعروف في
النحو . ومعنى بعيد ، وهو الساكن بمعنى المقيم في القلب .

(٣) الفلك السقن وكل ما يحضر البصر ، وهو جمع لا واحد له من لفظه ، والزهر جمع أزهر ،
وهو النجم اللامع .

مِدَّتْ عَلَيْهَا الرَوَائِي خُضْرُ مُنْدَسِهَا
وَالْمَاءُ حِينَ سَرَى رَطْبُ النَّسِيمِ بِهِ
كَسَابِغَاتِ دُرُوعٍ فَوْقَهَا نُقْطُ
وَلِلنَّدِيمِ بِهَا عَيْشٌ تُسَاعِدُهُ
يَرْوَحُ مِنْهَا صَرِيحَ الْعَقْلِ حِينَ يَرَى
وَلِلرَّفَاقِ بِهَا جَمْعٌ وَمُفْتَرَقٌ
وَعُرِّدَتْ فِي نَوَاحِيهَا حَمَامَاتُ (١)
وَحُلَّ فِيهِ مِنَ الْأَدْوَحِ زَهْرَاتُ (٢)
مِنْ فِضَّةٍ ، وَاحْمَرَّارَا زُرْدَ طَعْنَاتُ (٣)
عَلَى اغْتِنَامِ دَوَاعِيهِ الْمَسْرَاتِ (٤)
عَلَى مَحَاسِنِهَا دَارَتْ زُجَاجَاتُ (٥)
لَمَّا غَدَّتْ وَهِيَ لِلنَّدِمَانِ حَانَاتُ (٦)

سَقِيًّا لِأَسِيوْطٍ

لَمَّا فَرَ الْعَطَارُ مِنَ الْقَاهِرَةِ إِلَى الصَّعِيدِ نَجَاةً بِنَفْسِهِ مِنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ الْمُعْتَدِينَ ،
نَزَلَ بِمَدِينَةِ أَسِيوْطٍ ، فَأَحْبَبَهَا ، وَوَصَفَهَا نَثْرًا وَشِعْرًا . وَمِنْ شَعْرِهِ الْمُرْتَجِلِ فِيهَا هَذَانِ
الْبَيْتَانِ :

سَقِيًّا لِأَسِيوْطٍ ذَاتِ الظِّلِّ وَالشَّجَرِ . وَمَرَبِيعِ اللَّهْوِ وَاللَّذَاتِ وَالزَّهْرِ (٧)
مَنَازِلُ بِصُنُوفِ الْعَيْشِ لِإِعَامَرَةٍ . يَلْهَوُ النَّدِيمُ بِهَا فِي مَشْتَهَى الْوَطَرِ (٨)

(١) . الرَوَائِي : جَمْعُ رَايَةٍ وَهِيَ الْأَرْضُ الْمُرْتَفَعَةُ ، وَالسُّتَيْسُ وَشَى أَخْضَرٌ يَشْبُهُ بِهِ النَّهَاتُ وَالْعُشْبُ
الْأَخْضَرُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ .

(٢) . الْأَدْوَحُ الشَّجَرُ الْعَظِيمُ جَمْعُ دَوْحَةٍ .

(٣) . الدَّرُوعُ السَّابِقَةُ هِيَ الدَّرُوعُ الْوَاسِعَةُ الْمُقَاصَّةُ . وَلَقَدْ شَبَّهَ الشَّاعِرُ هُنَا تَمَوُّجَ الْمَاءِ فِي بَرَكَةِ
الْأَزْهَكَةِ بِالتَّمَوُّجَاتِ الَّتِي عَلَى سَطْحِ الدَّرُوعِ ، وَشَبَّهَ أَوْدَاقَ الْوَرْدِ الْحَمْرَاءِ الْمُتَنَاقِثَةَ عَلَى وَجْهِ الْبَرَكَةِ
بِالطَّعْنَاتِ فِي الصَّدُورِ الَّتِي تَقْبِلُهَا الدَّرُوعُ . . .

(٤) . اغْتِنَامُ الْمَسْرَاتِ ، انْتِهَازُ أَرْقَاقِ السَّرُورِ .

(٥) . صَرِيحُ الْعَقْلِ أَيْ مُسَلَّوْبُ الْعَقْلِ .

(٦) . الرَّفَاقُ جَمْعُ رَفِيقٍ وَهُوَ السَّحَابُ . وَالنَّدِمَانُ جَمَاعَاتُ الشَّارِبِينَ . وَالْحَانَاتُ جَمْعُ حَالَةٍ وَهِيَ
مَا يَقْدُمُ فِيهَا الشَّرَابُ وَيَجْمَعُ الشَّارِبُونَ .

(٧) . سَقِيًّا لِأَسِيوْطٍ . يَدْعُو الشَّاعِرُ هُنَا لِأَسِيوْطٍ أَنْ يَسْقِيَهَا أَقْدًا بِالْمَطَرِ .

(٨) . الْوَطَرُ هُوَ مَا يَطْلُبُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ رَغَبَاتٍ .

عرائس دمشق

نزل العطار بدمشق بعد جولته في تركيا وألبانيا ، وقد نظم في وصفها هذه الأبيات التالية الطائفة . وقد اختار لها هذه القافية الصعبة الغليظة لأنه عارض بها قصيدة في الغرض نفسه للشيخ محمد المسيرى الذي قدمها من بيروت فوصفها ولكن أبياته لم تقع من الأدباء موقع القبول ، فأراد العطار أن يعارضها بأبياته الآتية :

بوادى دمشق الشام جزبي أخا البسطة - وعرج على باب السلام ولا تُخطى^{١)}
ولا تبك ما يبكي امرؤ القيس حوماً^{٢)} ولا منزلاً أودى بمنعرج السقط.^{٣)}
فإن على باب السلام من البها - ملابس حسن قد حفظن من العط.^{٤)}
هنالك تلقى ما يروك منظرًا - ويسئلى من الأخدان والصحب والرهب.^{٥)}
عرائس أشجار إذا الريح هزها - تميل سكارى وهى تخطر في مرط^{٦)}
كسماها الحيا أثواب خِطِر قد ثرت - بنور شعاع الشمس والزهر كالقُطر^{٧)}

(١) عرج أى مل نحو باب السلام وهو من أبواب دمشق القديمة . لا تخطى أى لا تخطى
إصابة قرضك .

(٢) حومل والسقط مكانان وقف عليهما الشاعر الجاهل امرؤ القيس وبكى أطلالهما بعد رحيل أحبابه عنها في قوله :

قفا نيلك من ذكرى حبيب ومنزل يسقط اللوى بين الدخول فحسب

(٣) المط موشق الثياب أو تشققها .

(٤) الأخدان جمع خدن وهو المصاحب . والرهب الجماعة من الناس أو الجماعة من قوم الرجل وأهله .

(٥) تخطر أى تميل ، والمرط الثوب غير المخطط .

(٦) الحيا المطر والخطر الغصن من الشجر . ودثرت أى تلفت بدثار . والقُطر ما يوضع في الأذن لتصل به المرأة (الحلق) .

دمعة على عالم

كان الشيخ محمد عرفة الدسوقي المالكي أستاذاً للشيخ حسن العطار في الأزهر ، وكان من كبار المحققين والمؤلفين في وقته . فلما مات سنة ١٢٣٠ هـ سنة ١٨١٥ م رثاه تلميذه الوفي بالقصيدة التي نذكر منها الآيات التالية :

أحاديثُ دهرٍ قد أَلُمُّ فأوجعاً وحَلُّ بنادى جمعنا فتصدعاً^(١)
 لقد صَالَ فیتا البینَ أعظمَ صولةٍ فلم یُخَلِّ من وقعِ المصيبةِ موضعاً^(٢)
 وجاءتِ خطوبُ الدهرِ تترى فكلما مضى : حادثٌ يعقبه آخرٌ مسرعاً^(٣)
 وحَلُّ بنا ما لم تكن في حسابهِ من الدهرِ ما أبكى العیونَ وأفزعا
 خطوبُ زمانٍ لو تمادى أَقلُّها بشامخِ رضى أو ثبیرِ تَضَعُضعا^(٤)
 وأضحى شأنُ الناسِ ما بینَ عائدٍ مريضاً ، وثانٍ للحبيبِ مشيعاً
 لقد كانَ روضُ العیشِ بالأمنِ بانعاً فأضحى هشیماً ظلُّه متعشعاً
 أحسنُ أن لا یبدلَ الشخصُ مهجاً ويبكى دماً إن أفذت العینَ أدماً^(٥)
 وقد سارَ بالأحبابِ فی حینِ غفلةٍ سریرُ^(٦) المنايا عاجلاً متسرعاً
 وفی كلِّ يومٍ روعةٌ بعدَ روعةٍ فلله ما قاتى الفؤادَ ورُوعاً^(٧)

(١) أَلُم أى نزل . تصدع الجمع أى تكسر وتفرق .

(٢) البین الفراق . لم یُخَلِّ أى لم يترك .

(٣) تترى أى جاءت متتابعة . وتعمل هذه اللفظة حالاً أى أنها اسم - ومن الخطأ استعمالها فعلاً . فلا يقال : تترى الحوادث ، أى تتوالى . بل يقال : جاءت الحوادث تترى .

(٤) رضى اسم جبل بالحجاز وثیر كذلك اسم جبل ببلاد العرب هل یبین الذهاب إلى عرفات

(٥) سریر المنايا أى سریر الموت وهو النمش الذى یوضع فی المیت ویسار به إلى قبره .

(٦) الروعة المصيبة التى تروع .

عزاةً بنى الدنيا بفقْد أئمةٍ
 يميناً لقد جَلَّ المصاب بشيخنا الد
 وشابت قلوبٌ ، لا مفارقٌ ، عندما
 فللناس عُذرٌ في البكاء وللأمتي
 تواضعٌ للطلاب فانتفعوا به
 وكان حليماً واسعَ الصدر ماجداً
 سعى في اكتساب الحمد طول حياته
 ولم تلهه الدنيا بزُخرف صورة
 لقد صرفَ الأوقات في العلم والتقى
 فقَدناه ، لكنْ نفعه - الدهر - دائمٌ
 فجوزى بالحسن ، وتوَجَّ بالرضى

لِكأْسٍ مَرِيرٍ الموتُ كُلُّ تَجَرُّعا
 سوقٌ وعاد القلبُ بالهم مُتَرَعَا^(١)
 تنكرت الأسماع صوت الذي نعى^(٢)
 عليه ، وأما في السواء فتجزعا
 على أَنَّهُ بالحلم زادَ ترقُّعا^(٣)
 نقياً ، نقياً ، زاهداً متورعا
 ولم نَرَهُ في غير ذلك اقلَّه سعى
 عن العلم كيما أن تَغَرَّ وتَعْدَا^(٤)
 فما لَنَ لها يا صاح أمهى مضيعة
 وما مات من أبنى علوماً لمن وعى
 وقوبل بالإكرام ممن له دُعا

ج - المدح :

بشارك بالمنصب

كان الشيخ عبد الرحمن السفاقسي الضهير شيخاً لرواق المغاربة بالأزهر ،

- (١) جل المصاب أى عظم ، والقلب المترع هو المملوء بالهموم .
 (٢) القلوب لا المفارق التى شابت من هول المصاب وشدة وقع النعى الذى أنكرته المسامع غير
 مصلقة له .

- (٣) يشير العطار في هذا البيت إلى قول الشاعر العربي :
 دنوت تواضعا ، وعلوت مجداً فشانك انحدار وارتفاع
 (٤) لم تصرفه الدنيا يزغارها الكاذبة عن العلم وطلبه .

فلما عزل تولى بعده الشيخ شامل الطرابلسي . وكان العطار يميل إليه ويصادقه .
فامتدحه بقصيدة يقول فيها :

انهض فقد ولت جيوش الظلام وأقبل الصبح مَفسِرَ اللّثام ^(١)
وغنت الورق على أيكها تُنبّه الشّرب لشرب المدام ^(٢)
والزّهر أضحى في الرّبيّ باسما لما بكت بالطلّ عين الغمام ^(٣)
والفصن قد ماس بأزهاره لما غدت كالدرّ في الانتظام ^(٤)
وعطر الرّوض مرور الصّبّا على الرياحين فأبّرا السّقام ^(٥)
كأنما الورد على غصنه تيجان إبريز على حُسن هام
كأنما الغدران خلجان أغ صان النّقا ، والنهر مثل الحُسام ^(٦)
بُشراك مولانا على منصِب كان له فيك مزيّد الهيام ^(٧)
فقد رأينا منك ما نرتجي لا زلتَ فينا سالماً . والسلام

(١) ذكر صاحب كتاب « مصر في القرن الثامن عشر » أن هذه القصيدة قالها العطار في ملح صديقه الشيخ أبي القاسم المغربي شيخ رواق المغاربة . وقد رجع في هذا إلى كتاب « مظهر التّقدس » وصبارته مضطربة في هذا الحادث . والصواب ما ذكرناه من أنها في ملح الشيخ شامل الطرابلسي لقلا من الجبرق ج ٥ ص ١٤٦ طبعة لجنة البيان العربي .

(٢) الورق يضم الواو جمع ورقاء ، وهي الحمامة . والشرب بفتح الشين المشددة : جماعة الشاربين . والشرب بضمها مصدر من الفعل : شرب .

(٣) الرّبيّ جمع ريوّة وهي المرتفع من الأرض ، الطل المطر الخفيف . الغمام السحاب المملوء بالمطر وفي هذا البيت استمارة أي أن الأرض فسحكت بالزهر حين بكت السماء بالمطر .

(٤) ماس : مال .

(٥) الصبا ريح شرقية لطيفة في بلاد العرب ، وهي في الحق نسيم لا ريح . أبرأ أصلها أبرأ أي شفى المرضى .

(٦) الغدران جمع غدير . والنقا القطعة من الرمل المحدودة ، والحسام السيف .

(٧) الهيام شدة الكلف بالشئ . يريد الشاعر أن المنصب نفسه كان مشقاً إلى أن يتأله

المملوح .

فخر المرء بأفعاله

كان بعض المشايخ من أصدقاء العطار نقيماً لأشراف القدس ، ولكنه أبعد
من النقابة ، ثم عاد إليها مرة أخرى ، فنظم العطار قصيدة يهنته منها هذه
الآيات :

الحمد لله على فضله	قد رَجَعَ الحق إلى أهله ^(١)
وَأَضْرَوْضُ الفضل ذا بهجة	من بعد ما أَشْفَقَ من مَحْلَبِه ^(٢)
قد يطلبُ الحسنة من لم يكن	كفَوْاً لها ، للحمق في عقله
قد يتساوى اثنان في منصب	ولمَّا التفريق في مُبْلِه ^(٣)
ومَفْخَرُ المرء بأفعاله	لا بالذي قد مات من أهله
وقد يسودُ الشخص آباءه	ويشرفُ الفرعُ على أصله ^(٤)
وقد نرى فَرْعَيْنِ من دوحة	تَخَالَفا في الحكم مع شكله
فالخلُّ والخمر عصيرٌ ، وقد	باين هذا ذاك في فعله

(١) رجع الحق إلى أصحابه بعدة المهنأ إلى عمله .

(٢) آض : صار ، واخُل جذب الأرض .

(٣) الفرق بين اثنين توليا منصباً واحداً هو في طريق كل منهما في عمله .

(٤) يسود : يتفوق ويزيد في السيادة . ويشرف أى يكون ذا شرف أكثر .

ثلاثة في واحد

هجا العطار شخصاً بأنه اجتمع فيه البخل ، والجهل مع التعالم ، واحتسد
مع التودد ، فقال :

إني لأكره في الزمان ثلاثة ما إن لها في عدها من زائد
قرب البخيل ، وجاهلاً متفاضلاً لا يستحي ، وتودداً من حاسد
ومن البلية والرزية أن ترى هذى الثلاثة جُمعت في واحد

جنود الحملة الفرنسية

لاحظ العطار أن جنود الحملة الفرنسية كانوا يركبون الحمير ويمجدونها في
المشى والإسراع ، وهم يصيحون ويعربدون في أخطاط القاهرة ، ويشاركهم
المكارية - الحمارون - في ذلك ، كما أنهم كانوا كثيرون التردد على الحانات
التي أقيمت خصيصاً لهم ، فقال في ذلك بهجهم ويتمنى هلاكهم في جملة
الشام :

إن الفرنسيين قد ضاعت دراهمهم في مصرنا بين حمار وخمار
وعن قريب لهم في الشام مهلكة يضيع فيها لهم آجال أعمار^(١)

(١) المهلكة الملاك والموت . وهنا يتمنى لم الشاعر الموت في حملتهم على الشام .

قطاف الكروم

كان العطار معجباً بشعر أهل الأندلس وموشحاتهم . وكان يرى فيها ما يوجب السرور للنفس . وقد عارض إحدى الموشحات الأندلسية التي مطلعها :

في رنة العود والسلافه والروض والنهر لي نديم

بقوله ، وقد سجله في حاشيته على التهذيب في المنطق :

في الروض والنهر والسلافه يديرها الشادن الرخيم^(١)
 بين ندامي حرواً لطافه قد طاب والله لي النعيم^(٢)
 يا لأمماً لي على التصابي ولست أضبو إلى ملام
 أما ترى سندس الروابي كلة لؤلؤ الغمام^(٣) ؟
 والشمس واقتك في نقاب ضمخه عنبر الظلام^(٤)
 والكرم أبدي لنا قطافة كأنها لؤلؤ نظم^(٥)
 والنهر قد أحسن انعطافه مثل سوار بكف ريم^(٦)

(١) السلافه والسلاف بضم السين ما سال وتعلب من الخمر قبل عصره ، الشادن ولد الفزأل يشبه به النلى يدير الخمر على الشاربين ، والرخيم الرقيق الصوت .

(٢) الندامى جمع ندام وهو المرافق على الشراب .

(٣) سندس الروابي أى الخفزة التى تكلل سطوح الأرض المرتفعة . كلة أى جعل له إكليلا . لؤلؤ الغمام هو ماء المطر الشبيه بجذات اللؤلؤ .

(٤) النقاب ما يوضع على الوجه ليغطيه كالجباب . نسخه أى عطره بالخطيب . وعنبر الظلام ، هو سواد الليل ، شبه بالمتبر في سواده .

(٥) الكرم شجرة المنب : واللؤلؤ النظم أى المنظوم .

(٦) السوار ما يلبس في المعصم ، والريم منه النظم .

نسمة الشمال

وهذه هي موشحة أخرى لحسن العطار على طويقة الأندلسيين . وهما مما دونه
الرجل في كتابه « حاشية على شرح التهذيب في المنطق » للخبيري :

صاح ! تنبّه من النعاس فكوكب الصبيح قد أنار
وانهض إلى روضة وكاس وشادن خالي العذار^(١)

• • •

أما ترى المزن باللاكي قد قلّد الغصن^(٢) بالعقود؟
فماس في الروض باختيال يهيم الصب^(٣) للقود !
تهزّه نسمة الشمال فيعبق الروض بالورود^(٤)

• • •

يزهو بوشى من اللباس ما بين ورد وجلنار^(٥)
وللشقائق طراز آس ذكرنى الخد والعذار^(٦)

(١) العذار جانب الحية أو الخد .

(٢) المزن جمع مزنة وهي السحابة . وقد شبه حبات المطر بحبات العقد .

(٣) يهيم الصب : بالتشديد : أى يجمعه يهيم ويفتن . والصب المحب المولى ، والقود جمع قد ، وهو القوام .

(٤) يهيم أى تشتر رائحته .

(٥) الوشى ما يوشى الثياب ويحليها ويزركشها ، والجلنار نوع من الورود وهي فارسية الأصل .

(٦) الشقائق نبات أحمر الزهر مبعق بنقل سواده . والآس نوع من نبات الريحان الطرى

علوم العربية

كان حسن العطار ينظم النوع من الشعر المسمى بالتعليمي - كشعر ألفية ابن مالك في النحو - والقصد منه تسهيل حفظ القواعد . فمن شعره التعليمي - ومن المجاز أن يسمى هذا شعراً - قوله في عد علوم العربية في نظره :

نحو ، وصرف ، عروض ، بعده لغة ثم اشتقاق ، وقرض الشعر ، لإنشاء
كلذا المعاني ، بيان ، الخط ، ثقافة تاريخ هذا لعلم العرب إحصاء

أنواع المعارف

الاسم المعرفة في علم النحو ضد النكرة ، والمعارف سبعة أنواع جمعها حسن العطار في بيت واحد مشهور كان يحفظه تلاميذ المدارس حصراً لأنواع المعارف ، وهي : الضمير ، والعلم ، واسم الإشارة ، واسم الموصول ، والمحل بال ، والمضاف ، والمنادى . والبيت هو :

إن المعارف سبعة فيها مهل أنا ، صالح ، ذا ، ما ، ألفى ، ابنى ، يارجل

٢ - حسن العطار النائر

١- الوصف :

وصف دمشق

سبق أن وصف العطار دمشق شعراً ، وهنا وصفها نثراً يقول فيه :

أما دمشق الشام ، فهي غرة^(١) البلاد ، وبُغية المرتاد^(٢) ، وهي في الدنيا جنة ، وساكنها له من المم وقاية وجنة^(٣) . ذات سرور وحبور ، وقصور ونهور ، ورياض وحياض ، وفاكهة ذات ألوان ، ووجوه حسان . هي أعلى متزهات الدنيا الأربع ، يطيب بها العيش لمن في ربوتها يرتفع ، ويسلك لكل روض فيها للقطف مهيج^(٤) . فبرى أحسن مرأى ويسمع أشهى مسمع .

وقيل له أهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا مبيت صالح ومقيل^(٥) عند ذلك يتفرغ باله ، وتنفسح آماله ، ويطيب باجتلاء الهاني ، واقتبال الأماني بكوره وأصاله ، وتراعى له تلك القصور ، التي عليها الحسن مقصور ، والمنازل الفسيحة ، والمنازه المليحة ، والأراضي السندسية ، والمناهل الفضية ، والرياض المونقة^(٦) ، والحنان المهدقة ، والثمار الباسقة ، والأزهار المتناسقة ، والغدران المتدفقة ، والوجوه المشرقة .

تلك المنازل والملا عب لا أراها الله محلا^(٧)

(١) غرة الشيء جبهته وأشرف شيء فيه .

(٢) المرتاد . الشخص الذي يرتاد البلاد ويحبها .

(٣) الجنة بضم الجيم - الوقاية .

(٤) المهيج الطريق والدرب الذي يسير فيه المرء .

(٥) المقيل اسم مكان من قال بالمكان أي نام فيه بالثاقلة أي منتصف النهار .

(٦) المونقة : المعبية . وهي اسم فاعل من القعل : آثق بمعنى أعجب .

(٧) لعل يسكون الخاء هو جذب الأرض ، وهنا يدعو لها الشاعر بالتحبيب .

حيثُ التفتُ وجدتُ ما : سابقاً ، وسكنتُ ظلاً

فالتردد في تلك السُّوح^(١) ، التي نسيماها بعطر شداهما^(٢) يفوح ، يطيبُ صَبُوحه وغبوقه^(٣) ، ويُحمدُ غروبه وشروقه ، ويرى عنوان الجنان ، في هذا المكان ، من حورٍ وولدان^(٤) ، وجواهرٍ وعقيان^(٥) ، وأوقات كلها أسحار^(٦) ، وجنات تجري من تحتها الأنهار .

متنزهات القسطنطينية

وحين حل الشيخ حسن العطار ببلاد الروم - تركيا - نزل بعاصمتها القسطنطينية ، فأعجبه متنزهاتها وخلجانها وقصورها ومعاهدها ، فكتب هذه الرسالة يصفها :

كتب إلى السيد الجليل أدام الله إشرافه ، وعطر بالثناء أخلاقه ، وأنا بالطرف الذي هو في عقد محاسن الدنيا الواسطة ، ومفاخره في سماء المعالي متصاعدة لا هابطة . ونعم هو منزلاً في مطالع السرور عالى ، وقدره في المتنزهات غالى ، وبدر إشرافه بالسعود متلالى ، وبه الغريب لأوطانه سالى^(٧) . وقد أطل على الخليج القسطنطيني المحتف بعرائس القصور ، والرياض المعطرة بروائح الزهور ، وملاعب الولدان وأحور ، ومجتنى ضروب اللذات والسرور ، والساحب أذيال

(١) السوح جمع ساحة وهي المكان الواسع .

(٢) الشلى الريح الطيب وأرج العطر .

(٣) الصبوح كل ما يؤكل أو يشرب صباحاً ، والغبوق يفتح الفين ما يؤكل أو يشرب حل

للساء أو في العشي .

(٤) الحور جمع حوراء وهي الفتاة الحسنة أو التي اشتد سواد حينها وبياضها .

(٥) العقيان بكسر العين : الذهب الخالص .

(٦) أسحار جمع سحر بفتح السين وهو ما قيل طلوع الفجر .

(٧) سلا الرجل أوطانه أى تمثل على بعدها بالصبر عنها .

الحبر والحبور^(١) ، حيثُ الفلكُ ببذور الحسن في ذلك الخليج ساجحة ، غاديةٌ في ضروب المسرات رائحة ، والزوارق على وجه الماء ، تنساب كالحية الرقطاء^(٢) ، تتلاعب بها أمواجه ، ويزيد بها للنظر سروره وإتهاجه . وقد طلع بها شمس وبذور ، وأرُبت على الأفلاك^(٣) حيثُ في كل فلكك كوكب ، وهذه على عدة كواكب تدور . وقد أحاط بذلك الخليج تلك المنتزهات^(٤) ، والمعاهدُ العامرة بالذات ، والبذورُ التي هي عن الحسن مسفرة ، والوجوهُ التي هي بالنعم مستبشرة .

يُطلُّ من كلِّ دار حوله قمرٌ وليس في الأفقِ يا هذا سوى قمر
والماء مثل السما لونا وباطنه يشف عن نيرات الأنجم الزهر
والشط يرقل في ملابس سندسيات ، ويهدي إلينا نوافح مسك عاطرات ،
ويزهو من بهجته بأحسن منظر ، ويتيهُ بجلباب من السندس الأخضر .
والأنهار تتخلله ، والأشجارُ تظلاله .

سقياً لها من بطاح خزان^(٥) ودوح روض بها مُطلٌ
فما ترى غير وجه شمس يلوح فيها عذار ظل^(٦)

والنسيمُ بقامات الغصون يعرِّد ، ولصفحة وجه النهر يجعد ، وقيان^(٧) الطيور
على منابر الدوح تغرد ، والنديمُ يشدو ويُنشد . . .

(١) الحبر بكسر الحاء وفتح الباء جمع حبرة وهي نوع من الثياب التي كانت تصنع باليمن .
والحبور المروور .

(٢) الحية الرقطاء هي السوداء المشوية بنقط بيضاء .

(٣) يستعمل المطار كلمة منتزه بتقديم التثنية على التاء ، والأصح منتزه بتقديم التاء على التثنية ، وهو المكان الذي ينتزه فيه الإنسان .

(٤) الخُر الحُرير ، وقد شبه بقاع الأرض بالخُر الناعم .

(٥) العذار الخلد ، أو جانب الوجه ، وشبه الظل بالشعر الثابت في العذار .

(٦) القيان الطيور المغنية . وأصل القينة في اللغة : الجارية أو المغنية .

في الشوق إلى صديق

كتب حسن العطار هذه الرسالة في الشوق إلى أحد الإخوان . وهي نموذج من رسائله الإخوانية :

العهد يا سيدى بعيد ، والشوق شديد ، وسبلى إلى زيارتك غير مُستَهْلَمَة ، وعادة تفضلتك في المراجعة متعطلة ، وأنت على صلتى بعائد^(١) موصولك أقدر ، وأحق برعايتى وأجدر . ولم أقل هذا شكوى لك بل شكوى إليك . وكيف أشكو من لا أخلوله من مبرة أشكرها^(٢) ، ومئة أتحمّلها ، ويد أحفظها . وأعتد بها . وبالله لو تلازمتنا على المداومة ، وتلاقينا على المواظبة . لما نفع ذلك^(٣) غلة ظمأى إليك ، ولا عدمت نزوات^(٤) الحنين عليك . فكيف^(٥) والشقة بيننا معترضة ، والأعمار دون اجتماع الشمل منقرضة ؟ والله يطيل مدة عمرك ، ويمد أيام عزك ، ويقرب دارك ، ويبنى مزارك ، ويجرس النعمة عندك ، ويديم سعدك ، ويربى إياك على ما أحبه لك وتجه لى ، من سكون الجأش^(٦) ، ورغد المعاش ، وصلاح الحال ، ورفاه البال بقدرته آمين .

(١) لاحظ هنا استعمال العطار لمصطلحات العلوم في ثمره . فالصلة ، والعائد ، والموصول هي من مصطلحات علم النحو كما لا يخفى .

(٢) المنة ، المعروف أو الصنيعة .

(٣) تقع - بالقاف - الماء غلة العطشان أى سكن ظمأه .

(٤) النزوات : جميع نزوة وهي الصولة ، والوثبة .

(٥) الشقة : يفهم القاف المسافة .

(٦) الجأش : النفس أو القلب أو الضمير . وأصلها الجأش بالهمزة ، ولكنه سهل إلى ألف

مراجعة للجملة في كلمة : المعاش . ويقال : فلان ساكن الجأش أى هادئ النفس لا يضطرب .

أمل في اللقاء

وكتب رسالة أخرى إلى صاحب يأمل في لقائه ، بعد افتراق :

أخي الذي انتثر عقد نظائى معه ، وصاح غراب البين^(١) ، على مجمع شملنا فصدعه . قد كنت أظن أن الأيام لا تزال لنا باسمة ، ورياح المسرات بنادى جمعنا ناسمة ، فإذا أنا مكلف الأيام ضد طباعها ، ومتشبت منها بخلاف أوضاعها . ومع ذلك فأنا لا آيس من اجتماع بعد فراق ، ومسرة تحصل وإن طاللت المشقة ، وبعدت الشقة ، وتأججت الحرقه .

وقد يجمع الله الشيتيين^(٢) بعدما يظن أن كل الظن أن لا تلاقيا

فالحمد لله على آلائه ، والشكر له على قضائه ، وعسى تعود هذه الأيام التي جرت إلينا سوابق الأمانى مطلقات الأعنة^(٣) ، وأبرزت الأقدار فيها من الآمال ما كان ساكناً كالأجنة . حقق الله ذلك المرجو والمأمول ، وأذعم بذلك المتمنى والمستول . ونسأل الله تعالى أن تكون شمسها دائماً مشرقة الأنوار ، وأن تكون هذه الحملة للدوام والاستمرار .

(١) البين الفراق ، وصاح غراب البين بين القوم ، كناية من تفرقهم ، فقد كان العرب يعتقدون أن صيحة الغراب تذيب بالافتراق . وفي هذا يقول الشاعر النابغة الجاهلي :

زم الموائل أن رحلتنا هذا وبذلك تنماب الغراب الأسود

(٢) مكلف الأيام ضد طباعها ، أى مكلفها ما ليس من طباعها من القدر والتقلب بأحوال الناس ، وفي هذا يقول الشاعر :

ومكلف الأيام ضد طباعها مطلب في الماء جلوة نار

(٣) الشيتيين : مثنى شيت وهو البعيد المتفرق .

(٤) الأعنة جمع عنان وهو لحام القوس ، ومطلقات الأعنة أى أحرار منطلقات بلا قيد .

ترجمة الألفية إلى التركية

ألفية ابن مالك في النحو مشهورة ، وقد ترجمها إلى اللغة التركية في عصر حسن العطار أديب كاتب تركي اسمه خيرت أفندی . فكتب العطار هذا التقریظ التالي لها :

أهذه حديقة زهر ، أم قلادة^(١) نحر ، أم سماء فضل أزهرت بها نجوم التحقيق ، وأشرق شمس التدقيق . استنار بها مبهم السالك ، في أحسن المسالك ، إلى ألفية ابن مالك . فبرزت بها تلك الخريدة^(٢) العربية في ملابس الروم^(٣) ، وُجليت تلك العروس على منصتها لكل مخاطب لها يروم^(٤) . أبدع ناظمها وأحسن ، وأحكم وأتقن . كيف لا وهو دوحه فضل أينعت بالزهر ، وتقلدت أغصانها من سحب العرفان بقلائد الدرر . رب فصاحة وبراعة ، وقرينة لنظم القريض سلسلة مطواعة . وهو في الألسن الثلاث سباق غايات ، وصاحب آيات بينات ، ودراية راسخة ، آية فضلها لما تقدمها فاسخة . كاتب حاسب . براعة تستنجم المطالب ، وتستمطر الرغائب ، وتخلد للأول بآثر ، وتنظم في جيد الزمان قلائد جواهر ، فعانيه قرة عقل تأرج^(٥) زهرها ، وسماء فضل أشرق بدورها . نظم بها في جيد البلاغة عقودا ، ووشى من الطروس يرودا^(٦) ، فهو حسنة الدهر ، وزينة العصر ، تتجمل به الأيام ، وتفتخر به

(١) القلادة : ما يحيط بالمتن من عقد وغيره ، والنحر : أهل الصدر .

(٢) الخريدة : هي القاعة البكر الحسنة التي يحملها الحياء .

(٣) برزت الألفية في ملابس الروم أي ترجمت إلى التركية فظهرت في ثوب تركي . والروم هم الأتراك كما كانوا يسمون في كتب التاريخ منذ ظهور دولتهم . وحسن العطار حين سافر إلى بلاد الروم أتى إلى بلاد تركية .

(٤) يروم أي يريد ويقصد . ومنصة العروس هي الذكة العالية التي تنص عليها ليلة عرسها .

(٥) تأرج زهرها أي فاح أريجها وطره .

(٦) الطروس جمع طرس وهو الصحيفة يكتب فيها ، والبرود - بضم الباء - جمع برد وهو نوع من الثياب المخططة .

الأنام . وإن أجريت في ميدان الصحف سوابق الأقلام ، ونشرت من مطويات محاسنه في أندية الثناء رايات وأعلام ، لمعترف بالقصور ، عن الخوض في هذه البحور ، فقصارى^(١) المديح ، عجز القصيح ، عن الوصول إلى هذا الفضاء الفسيح ، فانتقل من الثناء ، إلى الدعاء . حفظه الله ورعى . . .

رد عقائد المبطلين

وكتب الشيخ حسن العطار تقریظاً على كتاب ألفه شيخ الإسلام بتركيا : عطاء الله أفندي ، يرد به عقائد قوم مبطلين . ويقول العطار من تقریظه : ما روضة كللت^(٢) السحب ربابها بالآلى القطر ، وتوشحت^(٣) أعطاف قلدود غصونها بقلائد الزهر ، وتأرجت أرجاؤها بأريج ريحانها ، وصقلت يد الشمال مصيفة غدرانها ، بأبهج منظرا ، وأورق أثرا من لطافة هذا التأليف ، الذى علا الاتفاق على بلوغه الغاية القصوى ، فى تألف القلوب ، وأقرت العقول السليمة بأعجازه للنظراء فإنه منحة علام الغيوب ، ومدت إليه البلغاء أحناقها مستسلمين لإعجاز بلاغته ، ثملين من حننيا^(٤) معانيه المشرقة فى كؤوس فصاحته . فله هومن جنة علم قطوفها دانية ، لاتسمع فيها لاجية ، وتجره فهم^(٥) أضواء فيها شمس التحقيق ، وأشرقت فيها كواكب التدقيق ، وتحصن مشيد على الشريعة الغراء ، رفع على دعائم^(٦) الأدلة التى لا يأتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . . .

(١) قصارى الشيء : غايته . وتقول : قصارى مدعى أى غاية مدعى ومناه .

(٢) كللت السحب الربى أى توجتها وعقدت حل رأسها لإكليلها .

(٣) توشحت أى اتخذت لها وشاحا ، وهو ما يوضع بين المائق والكشميين . وقد كانت المرأة العربية تضع لها وشاحا ترصعه بالجواهر تزين به نفسها .

(٤) الحنيا سورة الخمر وشدة أثرها فى النفس ، أو الخمر نفسها .

(٥) المهرة مجموعة من النجوم فى السماء .

(٦) الدعائم جمع دعامة وهى ما يقوم عليه الشيء ويستند إليه .

من إجازة علمية للشيخ حسن البيطار

وكتب العطار إجازة لتلميذه الشيخ حسن البيطار الدمشقي ، حينما كان صاحبنا نازلاً بالشام بعد رحلة إلى تركيا وألبانيا ، يقول فيها بعد ديباجة مناسبة :
 أما بعد . فإن الشاب الفاضل ، والأديب العالم العامل ، الشيخ حسن (١) ابن الشيخ إبراهيم البيطار ، قد حضر عندي حينما حضرت إلى الشام ، جميع دروسى التى قرأتها على النمام ، حضور تدقيق ودراية ، غير أنه قد حضر تلاوة قليل من الأحاديث الشريفة على طريق الرواية . ثم استجازنى بما تجوز لى روايته ، وتسند إلى عن شيوخى الأعظم درايته . فتمنعت قدر الإمكان ، واعترفت بأنى لست من أهل هذا الشأن . وعندما ألح على استخرت الله وأجزته ، وبطلوبه وبرغبوه أسعفتُهُ ، بما تجوز لى روايته ، وتنسب إلى درايته ، عن أشياء (٢) الدين اقتبسْتُ أنوارهم ، واغنمتُ أسرارهم ، فهم والله الحمد عددٌ كثير ، كلُّ له قدرٌ خطير . فهم العلامة الشيخ محمد الصبان ، والفهامة الشيخ أحمد بن يونس ، والشيخ عبد الرحمن المغربي ، والشيخ أحمد السجاعي ، والشيخ أحمد العروسي ، والشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ محمد الشنوفى ، والشيخ عبد الله سويدان ، وغير هؤلاء من السادة الشافعية . وأما من السادة المالكية ، فالإمام الشيخ محمد الأمير ، والشيخ محمد عرفة الدسوقي ، والشيخ أحمد برغوث ، والشيخ الببلى وغيرهم .
 وقد يسر الله لى حين سياحتى فى الديار الرومية (٣) والشامية والحجازية ،

(١) . الشيخ حسن البيطار من علماء الشام فى عصر العطار ، وهو والد المرحوم الشيخ عبد الرزاق البيطار الذى كان عضواً بالمجمع العلمى العربى بدمشق - مجمع اللغة العربية الآن - ومؤلف كتاب « حلية البشر » الذى تزيين فيه لأعيان القرن الثالث عشر .

(٢) الأشياء : جمع شيخ ، كالشيوخ .

(٣) الديار الرومية ، هى بلاد تركية ، كما سبق القول فى هامش آخر .

فرأيت جهابذة فضلاء ، وأساتذة نبلاء ، قد تسنموا^(١) غارب الفضل ، واجتنبوا
 شمار العقول^(٢) ، فأخذت عنهم بعضاً من العلوم^(٣) ، وريحت تجارتى بما استفدته
 من دقائق المنطوق والمفهوم . وكذلك قد أجزئته بمالى من التأليف ، التى انتهزت
 فيها من الدهر فرصة بعد طول تسويف . فهى جملة من الرسائل والحواشى
 والشروح ، التى لا تخلو - إذا نظرت بعين الانتقاد - عن مطاعن^(٤) ، وجروح ،
 فليست مما يستحق أن ينشد فى المجالس والمحافل ، ويُذكر فى مجالس الأفاضل ،
 ولكن سأذكر بعضها لإزاحة لعة التشوف^(٥) ، وتبريداً لغبيل التطلّع والتلهّف ...

هـ - كتابة الشروط والصكوك :

علم الوثائق عند حسن العطار

جعل العطار فى كتابه « الإنشاء » قسمًا خاصًا بكتابة الشروط والوثائق ،
 وما يجب فيها من الاحتياجات ، وما يشترط لها من الآلات . وهو يحدثنا فى
 السطور التالية عن كتابة الشروط والعقود :

هذا فن مستقل مغاير لفن الإنشاء الذى هو القسم الأول . وقد أفرده
 العلماء كل قسم من هذين القسمين بالتأليف ، وأكثروا فيهما من التصانيف .
 وسمّى هذا القسم بكتابة الشروط ، لأنه عبارة عن شروط مجتمعة فى كل عقد
 من العقود الشرعية . ويسمى « علم الوثائق » أيضاً ، لأن وثوق الشهود وأرباب
 الحقوق بالصكوك . وهذا القسم نفعه غير منكور ، وفضله مشهور . لأن به
 تُصان حقوق الورى^(١) ، عن النسيان ، وتحفظ من الجحود والإنكار . ففائدته
 حفظ الأموال من الجانيين . لأن صاحب الحق إذا علم أن حقه قيد بالكتابة

(١) تسنموا غارب الشيء أى صعدوا قمته . وأصل الغارب : كاهل القوس ، وأصل كل شيء .

(٢) يبدو هنا تواضع حسن العطار الذى جعل مؤلفاته غير خالية من العلم .

(٣) التشوف التطلّع إلى الشيء والإشراف بالنظر إليه .

(٤) الورى : الناس .

احترز عن طلب الزيادة في حقه ، وعن تقديم المطالبة قبل حلول الأجل . ثم إن من الوثائق ما يكتب بين يدي القضاة ، ومنها ما يكتبه الناس بين يدي محكم ، أو بما يقع به التراضي بينهم في المبيعات والإجازات وغيرها من العقود . والغرض الذي نحن بصدده ذكر بعض صور مما هو المتعارف الآن بين الناس في كتابة المعاملات ، ويُقاس عليها غيرها ، لأن الحوادث التي تحتاج للكتابة لا تنتهي ، ولكن إذا حملت الأصول سهل معرفة الفروع . وينبغي أن تكون الكتابة على ورق أبيض قوى ، يبقى أزمنة بحيث لا يتفشت ولا يتمزق ، وتكون الكتابة بمداد أسود لا ينتشر ولا يمحى . ويراعى في الكتابة نسق الأسطر في طول المكتوب وجرسه ، بحيث إذا زيد حرف بين حرفين أو ألحقت كلمة بأحد جانبي السطر ظهر ذلك ولم يخف . وتتميز الأحرف المتشابهة بعضها عن بعض بعلامات مميزة دالة على المراد بها كالحاء والحاء والجيم والراء والزاي والنون وما أشبه ذلك . فإن سبق قلمه إلى غلط كشطه وأصلحه . ويكتب في آخر الكتاب قبل ذكر التاريخ أن الكشط والإصلاح في السطر الفلاني في اللفظ الفلاني صحيح من الأصل . ويكتب اسم كل من المتعاقدين ونسبهما وقبيلتهما ، وألقابهما وصفتهما . وأقل ما يكتب في النسبة ثلاثة ، فإنه قد يقع الاشتباه في النسب . وإن كان فيهما من غلبت كنيته على اسمه كتب كنيته . ويجوز أن يكتب النسب والبلاد يذكر حليته المختصة به التي يتميز بها عن غيره .

وليكتب قدر المبيع ^(١) وصفته ، فإن كان عقاراً عرفه بالتحديد بالجهات ، أو حيواناً فبالنقوت ^(٢) . ويكتب الثمن قدرأ ، ونوعا ، وصفة ، ووزناً ، حالاً أو مؤجلاً . ويكتب صفة العقد والعاقدين اثنين أو أكثر .

(١) المبيع : الشيء الذي يباع . وهو اسم مفعول من الفعل : باع . ومن الخطأ الشائع اليوم قلم : شيء مباع .
(٢) النقوت : جمع نقت وهو الوصف .

شرح التهذيب في المنطق

أكثر العطار من حواشيه وشروحه على الكتب القديمة في مختلف العلوم. وهنا المقدمة التي كتبها لحاشيته على كتاب «شرح التهذيب» للعلامة الخيصى في المنطق :

تهذيب المنطق والكلام الافتتاح بالحمد ، وتوشيعه بالشكر الذي به النعم تمتد . فالحمد لله فاتحة كل كتاب ، وخاتمة كل دعاء مجاب . فله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم ^(١) ، والمطالب لسواه إذا رفعت فهي عظم . والصلاة على رسوله الأعظم ، ونبيه الأكرم هي العروة الوثقى للمستمسكين ، والوسيلة العظمى للمتوسلين . فعليه من الله أفضل صلاة وأزكى سلام ، يتواليان عليه وعلى آله الفخام ، ومحبيه الكرام . وبعد : فيقول الفقير أبو السعادات حسن ابن محمد العطار ، غفر الله ذنوبه ، وستر في الدارين عيوبه : إن « شرح التهذيب » للعلامة الخيصى ^(٢) ، مع حجازة ألفاظه ، وسلامة معانيه ، محتاج إلى تسميم بعض مباحث ، وكشف غوامض لمن يعاينه . وقد وضع العلامة الشيخ (يس) عليه حاشية ضم فيها من كلف القوم أطرافاً ، وأسعف طالبيه بها إسعافاً . بيد أنه امتد إليها من أيدي النقلة التخريف ، وشوهوا محاسنها بكثرة التصحيف ، هذا مع نقله بكلام الغير بدون عزو ^(٣) ، ووقوعه بمقتضى الطبع البشري في السهو . وتلاه العلامة ابن سعيد المغربي ، فشغف بالاعتراض عليه ، وولع بتعقبه في كل ما عول عليه . وقد ألحاه ذلك إلى الاعتساف ^(٤) ، وتجاوز

(١) المطالب : جمع مطلب وهو ما يطلبه الإنسان من حاجات العيش . وإذا رفعت المطالب إلى غير الله فإنها عقيدة غير محمّدية .

(٢) الخيصى : عالم من رجال القرن الثامن الهجري اشتهر بالمنطق والنحو . وهو الوحيد في أعلام الأمة العربية الذي يعمل هذا القالب الغريب - توفي سنة ٧٣١ هـ . (٣) النزو : النسبة .

(٤) الاعتساف : هو الجور وركوب الأمر بلا تدبر ولا روية .

الإنصاف . ووقع في أوهام وأغاليط تعكر الأفهام . وقد قيل فيما سبق من الأمثال ، التي تناقلها الرجال : قل إن سقيم ميكثراً^(١) ، أو أقيل له عثار . وكثيراً ما ينقل عبارة غيره موهماً أنها مما له سند ، عندما أوزى زناد فكره وقدح . وربما أطاك في بعض المواضع ذيل الكلام ، مع عدم ملامته الحال واقتضاء المقام . فتوعدت^(٢) بما ارتكبه الطالب المسالك ، وتعسرت عليه المداوك . وصار الكتاب بسبب ذلك لغيرهما محتاجاً ، ومفتقراً لمن يسلك سبيل العدالة منهاجاً . فوضعت هذه الحاشية إسعافاً للطالبيين ، وإشفاقاً على المشتغلين ، متجنباً طرق التفریط والإفراط . ناظماً ما التقطته من جواهر النقول في أسنات^(٣) ، ملخصاً من الحاشيتين ما صفا ، موضحاً ما تركاه مستوراً بديل الحفا . وما نقلاه عن الغير لإليه أرجع ، ومنه أستمد وأتبع ، منبهاً بعزوه إلى قائله على أنهما منه أخذه ، وأنهما طريق معزاه^(٤) . وربما حذفاً من الكلام ما تم به فائدته ، وتعظماً حالته . فأذكره تمييزاً للكلام ، وتوضيحاً للمقام ، معولاً في النقول ، على ما هو مقبول ، عند علماء المعقول . هذا مع اعترافي بفضل سبقيهما ، وبعدم شأوهما ، مع قصوري عن الجرى معهما في ميدان ، وعبجزي عن مزاحمتها في هذا الشأن . . .

(١) المكثر : هو من يكثر من الشيء أو الكلام وهي صيغة مبالغة .

(٢) توعدت المسالك : صارت مرة صعبة .

(٣) الأسنات : جمع سمط وهو السلك أو الخيط الذي تنظم فيه اللات والجرز .

(٤) طريق معزاه - بالعين المهملة - أي طريق نسبه إلى صاحبه وعزوه إليه .

مقدمة العطار على حاشية الأزهرية

شرح الشيخ خالد على الأزهرية في علم النحو مشهور وخاصة لطلاب الأزهر والدراسات النحوية . وقد صنع العطار عليه حاشية معروفة ، وكتب لها المقدمة التالية وفيها شيء من سيرته ورحلته :

أما بعد حمد الله ، والصلاة والسلام على رسول الله محمد وآله ، فيقول الفقير حسن بن محمد العطار الشافعي المصري الأزهرى ، غفر الله ذنوبه ، وسر عيوبه : هذه حواشٍ كنتُ جمعتها على شرح الأزهرية في علم النحو ، وقت قراءتي لذلك الكتاب بالجامع الأزهر لبعض الطلبة ، ثم شرعت في نقلها من المسودة ، فدم مصر ما دهمتها من حادثة الكفرة الفرنسيين^(١) ، فخرجتُ فاراً من مصر إلى البلاد الرومية ، مستصحباً للمسودة وغيرها من بعض كتبي . فأقمتُ بالبلاد الرومية مدةً طويلةً ، ثم توجهتُ إلى دمشق الشام ، فصادف دخولي فيها^(٢) زوال يوم الجمعة الثاني من شهر ربيع الأول سنة خمس وعشرين ومائتين وألف ، فالتقيتُ مني بعضُ إخواني من أهل العلم بتلك البلدة ، قراءة الكتاب . فشرعتُ في نقل هذه الحاشية وكتابتها ، رجاء أن ينتفع بها إخواننا طلبة العلم فأفوز بدعوة أخ صالح ينظر فيها .

وأسأل الله أن ينفع بها ، ويحتم لي بالإيمان ، ويغفر لي الخطايا بمنه وكرمه . وهو حسبي ونعم الوكيل .

(١) يقصد العطار حادث الحملة الفرنسية على مصر ، وقد شهدته واتصل ببعض رجال الحملة ، كما اتصل بهم بعض علماء ذلك العصر ومنهم الجبرق المورخ .
(٢) الزوال هو وقت الظهور .

المراجع والمصادر

مرتبة وفق حروف الهجاء

- الأثار الفكرية : أمين فكرى - مطبعة بولاق - القاهرة ١٣١٥ هـ
- الآداب العربية فى القرن التاسع عشر : الألب لوىس شيوخو اليسوى .
بيروت سنة ١٩٢٤
- أدب المقالة الصحفية : د . عبد اللطيف حمزة - دار الفكر العربى - القاهرة
سنة ١٩٥٠
- الأزهر : محب الدين الخطيب - المكتبة السلفية ، القاهرة سنة ١٣٤٥ هـ
- الأزهر : د . عبد الحميد يونس ، عثمان توفيق - القاهرة سنة ١٩٤٦
- الأزهر بين الماضى والحاضر : منصور على رجب - القاهرة سنة ١٩٤٦
- أعيان البيان : حسن السندوى - القاهرة سنة ١٩١٤
- أعلام الفكر الإسلامى فى العصر الحديث : أحمد تيمور - القاهرة سنة ١٩٦٧
- الإنشاء : حسن العطار - القاهرة سنة ١٩٣٦
- بناء دولة : د . محمد فؤاد شكرى وزملائه - دار الفكر العربى - القاهرة
سنة ١٩٤٨
- تاريخ آداب اللغة العربية : جرجى زيدان - دار الهلال - القاهرة سنة ١٩٦٠
- تاريخ الأستاذ الإمام : السيد محمد رشيد رضا - مطبعة المنار - القاهرة سنة ١٩٣١
- تاريخ الإصلاح فى الأزهر : عبد المتعال الصعيدى . القاهرة سنة ١٩٥٨
- تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على : د . جمال الدين الشيال -
دار الفكر العربى - القاهرة سنة ١٩٥١
- تاريخ الحركة القومية : عبد الرحمن الراغبى . القاهرة سنة ١٩٢٩
- تاريخ الصحافة العربية : فيليب دى طرازى - المطبعة الأدبية - بيروت
سنة ١٩١٣

تاريخ الوقائع المصرية : إبراهيم عبيد - مكتبة الآداب - القاهرة سنة ١٩٤٦
 التوقيعات الإلهامية : اللواء محمد مختار - بولاق - القاهرة سنة ١٣١١ هـ
 حاشية العطار على جمع الجوامع - المطبعة العلمية - القاهرة سنة ١٣١٦ هـ
 حاشية العطار على شرح الأزهرية - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة
 حاشية العطار على شرح الخبصى - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة
 سنة ١٩٦٠

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة : عبد الرحمن السيوطى - مطبعة الوطن -
 القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ

حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر : عبد الرزاق البيطار - دمشق
 سنة ١٩٦١

حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى : كراثشكوفسكى ، ترجمة كلثوم عودة ،
 تحقيق وتعليق محمد عبد الغنى حسن - المجلس الأعلى لرعاية الفنون
 والآداب - القاهرة سنة ١٩٦٤

الخطط التوفيقية : على مبارك - مطبعة بولاق - القاهرة سنة ١٣٠٦ هـ
 دائرة المعارف الإسلامية : ترجمة اللجنة
 دراسات في الأدب العربى والتاريخ : محمد عبد الغنى حسن - الدار القومية -
 القاهرة سنة ١٩٦٧

ديوان إسماعيل الخشاب - مطبعة الجوائب - القسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ
 الإشعار بحميد الأشعار : السيد على البرويش - مصر سنة ١٢٧٠ هـ
 سبع الحمامة : بطرس كرامة - المطبعة الأدبية - بيروت سنة ١٨٩٨
 محمد شهاب الدين - القاهرة سنة ١٢٧٧ هـ

رفاعة الطهطاوى : د : حسين فوزى النجار - سلسلة أعلام العرب رقم ٥٣ -
 القاهرة

روضة المدارس : مجلة رأس تحريرها الشيخ رفاعه الطهطاوى - القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ
 الشيخ الحسين بن أحمد المرصفى : بمجملته عبد الجواد - دار المعارف بمصر
 سنة ١٩٥٢

عبد الرحمن الجبرتى : خليل شيبوب - سلسلة أقرأ ، عدد رقم ٧٠ - القاهرة
 سنة ١٩٤٨

عجائب الآثار ، التراجم والأخبار : عبد الرحمن الجبرتى - مطبعة بولاق -
 القاهرة ١٢٩٧ هـ

عجائب الآثار . فى التراجم والأخبار : عبد الرحمن الجبرتى - طبعة لجنة البيان
 العربى - القاهرة سنة ١٩٦٤

عصر محمد على : عبد الرحمن الرافعى - القاهرة سنة ١٩٣٠

فهرس الخزانة التيمورية : دار الكتب المصرية - القاهرة سنة ١٩٤٨

فى الأدب الحديث : عمر البسوقى - القاهرة سنة ١٩٦٤

لحة فى تاريخ الأزهر : د . على عبد الواحد وفى - القاهرة سنة ١٩٣٦

مصر فى القرن الثامن عشر : محمود الشرقاوى - القاهرة سنة ١٩٥٥

مظهر التقديس : بدهاب دولة الفرنسيس : عبد الرحمن الجبرتى - دار المعارف -
 القاهرة

المفصل فى تاريخ الأدب العربى : أحمد الإسكندرى وزملاؤه - القاهرة
 سنة ١٩٣٦

المقرى صاحب نفح الطيب : محمد عبد الغنى حسن - الدار المصرية للتأليف
 والترجمة - سلسلة أعلام العرب - القاهرة سنة ١٩٦٦

المنتخب من أدب العرب : د . طه حسين وزملاؤه - القاهرة سنة ١٩٣٦
 نشأة النثر الحديث : عمر البسوقى - القاهرة

الفهرس

الفصل الأول

عصر حسن العطار

صفحة

٥	(أ) الحياة السياسية
٩	(ب) الحالة الاجتماعية
١٥	(ج) الحياة العقلية

الفصل الثاني

حسن العطار في عصره

٢٠	١ - موجز حياة
٢٢	٢ - شيوخ وأساتذة
٢٥	٣ - تلاميذ نجباء
٢٨	٤ - بين التدريس والمشيمة
٣١	٥ - بين العطار والشاعر بطرس كرامة
٣٤	٦ - التحرير في الوقائع المصرية
٣٦	٧ - بين العطار والجورني المؤرخ
٣٩	٨ - الحكم الذي ترضى حكومته
٤١	٩ - قارئ الكتب الواعى
٤٢	١٠ - ثنائى مرح ، وثلاثى متلازم
٤٦	١١ - وصفاف الأوبئة

- ١٢ - العطار بين مادحيه وراثيه ٥١
- ١٣ - العطار في تقدير الرجال ٥٣

الفصل الثالث

جوانب حسن العطار

- ١ - حسن العطار الشاعر ٥٨
- ٢ - حسن العطار الناثر ٦٥
- ٣ - الفلكيات وعالم الفلك ٦٨
- ٤ - الاهتمام بالدراسات الأدبية ٧٠
- ٥ - المنبه لحركة الإصلاح الحديث ٧٣
- ٦ - منهج في التأليف ٧٧
- ٧ - الإجازات العلمية وتقاريط الكتب ٨١
- ٨ - آثار العطار ومؤلفاته ٨٤

الفصل الرابع

منتخبات من آثار حسن العطار

- ١ - حسن العطار الشاعر ٨٨
- (١) الغزل ٨٨
- رسالة عاشق لمشوق ٨٨
- إلى من ؟ ٨٩
- سلطان الهوى ٩٠
- أنا راض ٩١

مجلد

٩١	ب - الوصف .
٩١	بركة الأربكية
٩٢	سقا لاسيوط
٩٣	مرائس دمشق
٩٤	(ج) الرثاء
٩٤	دمعة على عالم
٩٥	(د) الملاح
٩٥	بشراك بالمنصب
٩٧	(هـ) التهنئة
٩٧	فخر المرء بالعمال
٩٨	(و) الهجاء
٩٨	ثلاثة في واحد
٩٨	جنود الحملة الفرنسية
٩٩	(ز) الموشحات
٩٩	قطاف الكروم
١٠٠	نسمة الشمال
١٠١	(ح) الشعر التعليمي
١٠١	علوم العربية
١٠١	أنواع المعارف
١٠٢	٢ - حسن العطار النائر
١٠٢	(١) الوصف .
١٠٢	وصف دمشق
١٠٣	متنزهات القسطنطينية

١٩٩٣ / ٩٣٨٩	رقم الإيداع
ISBN 977-02-4271-3	الترقيم الدولي

١ / ٩٣ / ١٦٠
 طبع مطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

مجموعة نوايع الفكر العربي

مجموعة جديدة جامعة تقدم نوايع الفكر العربي في جميع العصور : كما يصورهم ويترجمهم نوايع الفكر العربي في العصر الحاضر من كل قطر وبلد : فهي تعنى بالشعراء والكتاب كما تعنى بالفلاسفة والحكماء ، وتتناول أعلام اللغة كما تتناول أعلام التاريخ . وقد رأت دار المعارف أن تعهد في كل بحث من هذه البحوث إلى المختصين وذوى الخبرة والدراية فيه : فيجولوا فيه ويتبعوه بباب واف للمختار من روائع المترجم له مفسر المعاني مبين الأغراض .

● ظهر منها :

- | | |
|------------------------------|--------------------------------|
| ١ - ابن رشد . | ٢٢ - ابن سينا . |
| ٢ - الجاحظ . | ٢٣ - عبد الرحمن الكواكبي . |
| ٣ - الشيخ نجيب الحداد . | ٢٤ - رفاعة رافع الطهطاوى . |
| ٤ - محمود سامى البارودى . | ٢٥ - خليل مطران . |
| ٥ - ابن زيدون . | ٢٦ - ولى الدين يكن . |
| ٦ - الشيخ ناصيف اليازجى . | ٢٧ - صفى الدين الخلى . |
| ٧ - إخوان الصفا . | ٢٨ - البهاء زهير . |
| ٨ - بشار بن برد . | ٢٩ - جمال الدين الأفغانى . |
| ٩ - بديع الزمان الهمذانى . | ٣٠ - تقى الدين بن حجة الحموى . |
| ١٠ - أبو الفرج الأصبهانى . | ٣١ - الفارابى . |
| ١١ - ابن الرومى . | ٣٢ - ابن رشيق القيروانى . |
| ١٢ - الفرزدق . | ٣٣ - القاضى الجرجانى . |
| ١٣ - السهروردى . | ٣٤ - حسان بن ثابت . |
| ١٤ - الشيخ إبراهيم اليازجى . | ٣٥ - قاسم أمين . |
| ١٥ - المتنى . | ٣٦ - ضياء الدين بن الأثير . |
| ١٦ - البحرى . | ٣٧ - يعقوب صروف . |
| ١٧ - الحسناء . | ٣٨ - المسعودى . |
| ١٨ - ابن قتيبة . | ٣٩ - أمين الريحانى . |
| ١٩ - جرير . | ٤٠ - حسن العطار . |
| ٢٠ - ابن المقفع . | ٤١ - الشريف الرضى . |
| ٢١ - أبو حيان التوحيدى . | |